المختار السالم

موسم الذاكرة

رواية

موسم الذاكرة
الطبعة الأولى 2006 (دار الشروق/ الأردن)
الطبعة الثانية 2006 (دار الفكر/ نواكشوط)
الطبعة الثالثة 2006 (دار لارمتان / باريس)
الطبعـة الرابعـة 2022 (دار (“إي – كتـب” لمتـد e-Kutub Ltd) البريطانية).

الإهداء

إلى الذين عمروا الأرض
.. بأقلامهم
أو بمعاولهم
أو بسيوفهم...
إلى الذين ملأوا الأرض
.. بحبهم،
إلى الناس،
أهدي جزءا من الذاكرة المشتركة لتاريخ يتواصل.

المختار السالم

... لا.. سمحا سأكون في مقدمة هذه المسيرة الغريبة المتجهة شاقوليا، لكنها لا تزال في هذا المجرى عند ملتقى البحرين: بحر الرمال وبحر الماء...
غريب هو الصراع بين الماء والرمل... يقال إنه في البداية كان الماء يعم وجه الكرة الأرضية ثم استطاعت اليابسة أن تزحف شيئا فشيئا حتى تركت خمس بقع بعدد أصابع يد الإنسان.. كان ذلك قبل ملايين السنين.. لكن من أين جاءت اليابسة؟ هل كانت هي القلب؟ أم أن القارات تشكلت من أجسام ضخمة سقطت على كرة الماء السابحة في الفضاء هذه المسماة بالأرض؟!... أسئلة صعبة تتبدل الإجابة عنها كلما تبدلت الأقوام والعلوم... لكن هذا لا يهمني الآن وأنا أرى أمواج المياه تضرب الشاطئ بقوة كما تضرب أمواج الأفكار ذهني باستمرار..
والسؤال الغريب سمعته يوما من رئيس غير معترف به لحزب لم يعلن بعد، السؤال هو: كيف نطمئن لشاطئ إفريقي يتنكر باستمرار لوجودنا؟!
ولكن التفكير لا يجدي شيئا حين تنتهي من محاورة الشاطئ وستجد في تاريخنا البعيد وخلف سطور الفلاسفة أن الأرض كانت كرة مائية تسبح في هذا الفضاء اللامتناهي مثل أحلام السياسيين...
ذات مساء كنت أجلس على الشاطئ أراقب الأسماك التي تقفز من حين لآخر ثم تغوص في الماء كأنها خنجر الفقر الإفريقي، وعلى مقربة مني أوقفت تلك السائحة الغربية سيارتها العابرة لصحارينا، وتخلصت من ثيابها الثقيلة وألقت بنفسها بين طيّات الماء.. لقد

شبهت طيّات الموج مرة بطيّات بطن "زينب" تلك التي هربت من ذويها بعد اشتباهها في أمور لا تعني أحدا..
خرجت السائحة إلى الشاطئ وبعد هنيهة ألقت بنفسها بين الأمواج الزرقاء فتصورتها نيزكا يسقط في إحدى الغابات الإفريقية..
لقد اشتهيت السباحة في هذه اللحظات.. تمنيت أن أرى شواطئ الآخرين، ولكن جهلي بالسباحة حال بيني وبين التفكير الجدي في ذلك. ثم إن السائحة قطعت علي حبل أفكاري، إذ خرجت مرة أخرى ووقفت قريبا مني، وجسدها يتقاطر من الماء كأنها مزنة شتوية تستبق الفصول..
قالت بدون مقدمة:
- هل لديك صنارة؟
ارتبكت قليلا من لغتها العربية الفصحى .. وتساءلت في نفسي: من أين لها بمعرفة هذه اللغة؟ ربما تعلمتها ..لا.. من أين لها "السلاقة"؟!.
وقلت لنفسي: لعلها عربية تأخرت عن موكب الهاربين من الأندلس.. وانتبهتْ إلى أنني منشغل بالتفكير، فابتسمت وأعادت سؤالها بطريقة أكثر إثارة للانتباه ..
بالطبع أجبتها بالنفي لأن مهنة صيد السمك لا تغريني، لكنها سألتني مرة ثالثة إن كانت لدي صنارة في البيت فيمكن أن نحضرها بسرعة وقالت:
- إنك ستكتشف أن هذه الهواية فيها الكثير من المتعة والربح.
وفكرت كيف أن هؤلاء القوم يفكرون في الربح حتى في أوقات الفراغ والاستجمام!!
- لا، إن بيتنا لا يحوي شبابيك للصيد، ولكن لدي جارة يمكن أن نعثر لديها على مبتغانا!

- لا داعي.. ولكن فيم تفكر؟ هل أنت شاعر ؟.. سمعت أن بلادكم كانت في فترة قديمة لديها ثروة كبيرة من الشعراء؟
- هذا ليس صحيحا إنه من باب التندر والسخرية.. وسمعت أن لديكم أنتم الأوربيين الكثير من السياسيين؟
- لست أروبية.. أنا كندية.. هذا غير صحيح نحن لدينا الاقتصاديون والمهندسون والعشاق فقط.. وهذا سر تقدمنا..
لقد كان هذا الجواب مؤلما حقا، فقد شعرت أن الجهود الكبيرة التي بذلها قيس بن الملوح من أجل تحويل العرب إلى أمة حب قد جنى الآخرون ثمارها، وقلت لنفسي: حتى الحب لم يعد من حقنا؟ أم أن حبنا حالة متأخرة مثل كل شيء فينا؟!... أما نحن فلدينا الرمال والعسكر والأحلام !!
وبدأت ذاكرتي تستفزني مثل المواعيد المُخلَفة، حين أعادت إلي ذلك المنظر الأليم من حياتنا المقلوبة، إذ في تلك السنة بدت السماء مثل العيون النائمة قليلة الدموع.. وبعد أن كان جارنا "كركوب" يكدّ لإطعام أطفاله التسعة، اضطر لجمع أوراق الكرتون لإطعام شياهه.. وكان ذات يوم يقوم بجولة على المحلات التجارية، يجمع الكرتون الفارغ وبقايا المواد الفاسدة.. ألقت عليه الشرطة القبض واقتادته إلى ذلك المخفر حيث أحكموا عليه إغلاق السجن الضيق.
وجاءت جدته تسأل عن سبب اعتقاله، فأخبروها أنه سياسي متطرف يريد الإطاحة بالنظام العالمي، وهو ينتمي لتنظيم سري، فقد عثر بين الكراتين التي يحملها على ورق كرتون مصنع من جماعة أجنبية متطرفة !!
وتذكرت مرة داعبت فيها "كركوب" عندما قال لي:
- يا أخي كنت أظن بالأمس أن أمامي مشكلة إطعام الإنسان واليوم أضيف علي عبء إطعام الحيوان!!
قلت ساخرا - أو جادا - :

- وأنا أخاف أن تضطر غدا للصرف على ثياب للحيوان، فربما فرضت منظمات حقوق الحيوان الغربية علينا الكساء للحيوان.. ويومها سيبدأ السباق في موضات ثيابه: أناقة وتفصيلا.. وقد نقبل مرغمين بإدلائه بأصواته لانتخاب أعضاء البرلمان.
عند هذه اللحظة شعرت بالخجل، فهذه السائحة الغربية شابة جميلة تحلم بالسمك والحب على شاطئنا المنسيّ، وأنا منشغل بالماضي وذكريات الأمس، التي هي ذكريات الغد..
وقلت إن هذا لا يليق بكرم الضيافة والمؤانسة، وخير لشهوتي أن تنتحر ما دامت الظروف مواتية ..
كانت السائحة الضيفة، الاقتصادية، المهندسة، العاشقة، قد مدت يدها إلي، وكنت أشعر أن الدورة الفلكية تطعن الشمس بخنجر، فتسيل من حواليها الدماء .. إنه الأصيل..
إنها قصة الشفق والانفراد بسيف صقيل على الشاطئ !!
.. مدت يدها لتصافحني، فضغطت على يدها اللينة كالقطن بقوة فيما شعرت بالعرق يتصبب مني، كانت جميلة إلى حد لا يطاق، كأنك صنعتها على قدر هواك.. شعر رأسها الأسود الفاحم يغطي ظهرها بالكامل حتى يلامس رؤوس أردافها.. وجه مستدير يحمل عينين نجلاوين واسعتين.. شفاه رمادية مائلة إلى السواد تلاحظ فيها تجاعيد صغيرة كأنها آثار دبيب النحل في العسل، وحين تبتسم يبدو ثغرها العنقودي الشكل تصطف أسنانه البراقة كأنها شظايا مرآة عاكسة للضوء.. جيد طويل فوق صدر نافر يحمل نهدين منتصبين كأن يدا لم تلامسهما، وخصر نحيف ضيق كأنه مضيق في مجرى النهر، الفخذان المستويان كأنهما قصيدة عمودية، والساقان الطويلتان تشبهان قالبي سكر متجاورين.. يبدو هذا الجسم متناسقا في الهيئة والأبعاد إلى حد يثير الحيرة.. كل هذا الجمال الطبيعي الذي يحمل ملامح شرقية وهالة من السحر الأنثوي

الخلاب، يشعرك بأنك أمام قارة نسائية بكر، أنوثة من شكل جديد لم تعرفه في مسابقات الجمال ولا في عروض الأزياء.. أين كانت هذه الثروة الجمالية المدهشة.. شعرت بجفاف في الحلق وكأن الكلمات هي الأخرى تيبست في حنجرتي، كانت ذئاب الشهوة تعوي في جسدي، وأصبحت خائفا من أن تطرد الحالة الذئبية لجسمي هذا الغزال الذي يحمل البراءة.
سحبت يدها بهدوء من قبضتي، وهي تكرر ابتساماتها كأنها عدسة مصور مستعجل، وقالت وهي تنظر إلى سيارتها:
- لدي قائمة بأسماء الفنادق فأيها تختار لي؟
- إن لم يكن لديك مانع فيمكنك النزول في بيتي، هذا إن لم تكوني محبة لتبذير النقود.
- وهل لديك بيت مستقل؟
- نعم.. إنه بيت عمي، فهو متقاعد وفضل الإقامة في الداخل حيث يشعر ببعض الهدوء في قريتنا. وقد ترك لي مفاتيح أحد منازله في العاصمة لأقضي فيه عطلتي الجامعية..
- وأين تدرس؟
- في جامعة الرباط.. وأنا الآن أنتهز الفرصة لإعداد رسالة الدكتوراه عن النباتات الجبلية في موريتانيا.. لكنك ستتمتعين حقا معي.
- أنا مستعدة للذهاب معك على شرط أن تعرف أنني جئت هنا لمهمة إجراء بحث علمي في بلادكم، وأنني مرتبطة أي - بلغتكم أنتم - مخطوبة لرجل في بلادي، وسأتزوجه فور عودتي، وبالتالي لا أمارس الحب لأني ملتزمة.
وصمتت وقد تركت ابتسامتها مصلوبة على ثغرها.. كان حديثها بمثابة الضربة القاضية على توقعاتي وأمنياتي، وشعرت بخيبة أمل، كانت تتحدث ببساطة ولكن بجدية تزرع فيك القناعة بما

تقولـه.. قلـت فـي نفسـي وأنـا أشـعر بالحسـرة تنشـب أظافرهـا فـي أحشائي: "ومـا حـاجتي إذن لهـا؟".. علـي النـزول لأرض الواقـع، فهذه السحابة الجميلة يبدو أنها لن تنزل على جسدي القاحل.. هـي سحابة تمر في أفقي ويبدو أنها مـن نصـيب أرض أخـرى.. ولكنهـا باحثة وقد أستفيد منها ماديـا علـى الأقـل.. فلأحصـلن علـى فلوسـها وبعض من متعة النظر، ما دمت لم أحصل على قلبهـا أو جسـدها.. وحاولت الخروج من دوامة عواصف التفكير.

- أهلا وسهلا.. تفضلي.. ولكن عليك أن تعرفي أن البيـت متواضـع ولا يشبه الفنادق وخدماتها.. وما هو البحث الذي ستجرينه؟

- سـتعرف فـي الوقـت المناسـب.. سأقضـي معـك أسـابيع ريثمـا تصلني المعدات اللازمة لإجراء البحـث.. إطمـئن سـنتعارف أكثـر وستربح..

- "ستربح" هذه عبارة من لغة اليانصيب.

- الـدنيا يانصـيب.. إن كنـت الشـخص المناسـب - وأظـن ذلـك - فسيكون الأمر جيد جدا، وستكون الصدفة هي التي رتبت لقاءنا.

وصلنا إلى البيت فنزلـت مـن سيارتها وأدرت المفتـاح فـي البـاب ودلفت إلى الداخل لأفتح لها مرآب السيارة، فأدخلتها وأغلقت الباب وراءها، واتجهت بها إلى الصالون حيث جلست وهـي تلقـي نظـرة متفحصة على مقتنيات الصالون، وفتحت لها التلفزيون لتنشغل بهـا ريثما أعد الشاي، واتصلت بالمطعم ليبعث لنا بـوجبتين سـاخنتين.. دخلت عليها وأنا أحمـل كـأس الشـاي الأحمـر الـذي تعلـوه الرغـوة البيضاء كأنه ابتسامة ناصعة مـن تحـت شـفاه مصـبوغة بـالأحمر، تناولت الكأس وارتشـفت منـه ثـم توقفـت قلـيلا قبـل أن تفرغـه فـي معدتها دفعة واحدة.

- إنه فعلا لذيذ وجميل، كما قرأت عن الشاي في بلادكم على موقـع الشركة السياحية لغرب إفريقيا.

وتناولنا وجبة العشاء وتحدثنا طويلا في أمور شتى، كان معظمها يتعلق بي، وبعد منتصف الليل صحبتها في جولة داخل البيت.. هذه غرف الأطفال، لعمي ثلاثة أطفال وشابة في العشرين من عمرها، وهذا الصالون الثاني، وهذه السلالم المؤدية للطابق العلوي وهو مؤجر حاليا من طرف مكتب للترانزيت، وهذه المكتبة تضم كتباً نفيسة، وهنا.. انظري، هذه غرفة نوم عمي، وهي التي ستتخذينها غرفة نومك.. ودخلت إلى الغرفة وجلست على السرير الوثير وجالت ببصرها في الغرفة قبل أن تلتفت إلي وتقول:

- إن عمك مهتم بالتراث جدا.. هل يعمل في الآثار؟

- لا.. إن عمي كان ضابط شرطة، ولكنه شخصية فذة، فهو عبارة عن الماضي الحي.. ومتعلق بالرموز إلى حد التحجر.. عمي متحف متنقل وهو شخصية جذابة جدا.. على كل حال لن أطيل عليك لأني أشعر بأنك متعبة.. نوماً سعيداً وأحلاماً لذيذة..

- باي..

كان علي أن أتخذ من الصالون غرفة نوم مؤقتة. لأن الغرف الأخرى تضم مقتنيات الأطفال، وهي ضيقة.. ووضعت رأسي على الوسادة وأخذت أفكر في أحداث هذا المساء المفاجئة.. وماذا سيقول عمي لو علم بقصة سكن هذه الأجنبية معي، وهو يُعدّ ابنته للزواج مني؟!. فلا شك أن الجيران سيخبرونه في اتصالاته الهاتفية معهم، ودون أن أبحث عن إجابات لهذه الأسئلة الصغيرة الصعبة رحت أغط في النوم دون أن أشعر، لأستيقظ في الحادية عشرة صباحا، ولأجد "تاتو" قد أعدت الفطور وهي تجلس إلى جانبي في ملابسها الرياضية.. ألقيت عليها التحية بلغة متلعثمة من أثر النوم واتجهت إلى الحمام لأستحم وعدت لأجلس قبالتها ولنبدأ في تناول الإفطار.

في الأسابيع الأولى صحبت "تاتو" في جولة شملت أنحاء العاصمة والمناطق المطلة عليها وزرنا بيوت كبار الفنانين والشعراء والمفكرين والشخصيات الاعتبارية، وكافة الأماكن الترفيهية وحضرنا حفلة عرس على الطريقة التقليدية الموريتانية وشاهدنا بعض العروض المسرحية.. وبدأت "تاتو" تألف المجتمع الجديد بسرعة حتى إنها تفاجئني بسرعة تقدمها في هذا المجال.. وبدأ كل منا يفهم الآخر.. بدأت أشعر بإحراج شديد لإحساسي بأنها تفهم ما يجول بخاطري دون أن أتكلم.. إن ثروتها العقلية تضاهي ثروتها الجمالية، ولذلك كنت أتصرف بحذر شديد حتى في تفكيري وهواجسي لأنني أشعر أمامها بأنني مجرد مرآة عاكسة لا تكتم سرا.. وحاولت بكل تصميم أن أكبت شعوري بكونها امرأة.. علي أن أعاملها كما لو كانت رجلا وهذه مهمة صعبة.. لكنني نجحت فيها إلى حد ما.. وبدأ التآلف يأخذ مجراه الطبيعي بيننا فهي تعرف أنني أبذل قصارى جهدي في تحييد عاطفتي والقضاء على الحاجز الطبيعي بين الجنسين، وقد دخلنا في حوارات بالغة الذكاء والمتعة في ميادين متعددة، وأصبحنا نشعر بلذة اللعبة العقلية التي نمارسها في حياتنا وخاصة تلك النقاشات المتعلقة بمستقبل العالم وصيغته الجديدة، وطبيعة الإنسان ككائن والآفاق العلمية المستقبلية لتطور العلوم، والصراع المحتدم بين المجلس العالمي والكيانات الدولية التابعة له.

وطوال الأسابيع الأربعة التي قضيناها في هذا البيت كنت أرفض أن تدفع "تاتو" فلسا واحدا من تكاليف معاشنا لأن ذلك يعد بالنسبة لي من موروثنا في المروءات.. رغم أنها لم تتقبل الأمر بسهولة، فقد قبلت به مضطرة حتى بعد أن هددت بالذهاب إلى أحد الفنادق. إلا أنني كنت أشعر بأنها بحاجة إلي.. شيء ما يجعلها حريصة علي، ليس طبعا من الناحية الغرامية، وإنما هنالك خيط رفيع

يجعلها تتعلق بي.. وربما غيرت وجهة نظرها وفكت ذلك الارتباط المقدس في بلادها.. هناك فعلا عاطفة أخوية تولدت من الإعجاب بالقدرات الذهنية التي لمستها لدي والتي كان أساتذتي يفتنون بها.. فعلى الرغم من ذكائها الخارق وثقافتها الأسطورية، فقط ظلت تشعر بأنني ند عقلي يثير فضولها وربما لم تكن تتصور أن تصادف يوما ما في حياتها وفي هذا البلد شخصا من هذا النوع.. إنني أيضا أقرأ أفكارها مثلما تقرأ أفكاري، حتى حينما ترفع بصرها عن شاشة الكمبيوتر وتنظر إلي، فإنني أستعيد فورا في مخيلتي مشهدا للحياة الجامعية لأطرد من ذهني صورة شعرها الكثيف المنساب على ظهرها، كأنه نهر يتدلى من ربوة عالية، لأنها ستعرف الصورة التي تشغل مخيلتي وقد تحس بالإحراج باطلاعها على الوقائع الآنية الدائرة في تفكيري بأنوثتها..
في اليوم التاسع والعشرين لوصول "تاتو" إلى انواكشوط ها هي المعدات تصل بطائرة خاصة. وعلينا غدا الاستعداد للسفر ومباشرة مهمة بحث "تاتو" وهناك سيتوفر لي الوقت لإجراء بحثي أنا الآخر، فأساتذتي أصبحوا متشوقين لي وهم يحثونني على الإسراع في العمل يوميا بواسطة الانترنيت، حتى الأستاذ "تهامي" المعروف برزانته وأخلاقه وتسامحه خاطبني بالأمس وهو متوتر: "نحن ننتظر بحثك والمصانع تلح علي.. فماذا يشغلك...؟"..
"تهامي" يعرف أن البحث سيستغرق وقتا طويلا، لكنه يستعجل انطلاقته وربما كان قد تعرض لضغوط من أصحاب المصانع، وإلا لما تحدث بتلك اللهجة المتوترة.

***

وصلنا الجانب الغربي، لجبل "أشتف"، كان الجبل يبدو بقدر هدوئه الأزلي مثيرا وينذر منظره بحدوث زوبعة ذهنية في رأسي، شعرت بأن الذاكرة تنام هنا، وخيل إلي أن المسافة بين الإنسان وبين الماضي تكون أحيانا واقعا سرياليا، يعصف بالمعطيات المنطقية، ويخلق حقولا مغناطيسية تتلاعب بالجسد المنهك، من تراكمات الغبار الأسطوري لنشوة الإحساس بالحضور.
كانت "تاتو" قد نزلت من السيارة، واتجهت إلى صخرة قريبة وجلست تحدق في، وكأنها ترى جبل الهم الذي علاني من رؤية هذا الجبل.. قلت في نفسي إن التعبير لها عن المشاعر التي تبيض وتفرخ في داخلي سيكون أشبه بمحاولة قرص الصخور، ولأنني أفضل دائما الانزلاق على مشاعر الآخرين حتى لا أسقط من عيونهم الجبلية دون تواتر، فقد تجاهلت نظراتها، وفضلت الاستماع لتلك الموسيقى التي تنبعث من الجبل، إنها ليست موسيقى لكل أذن... فلا بد لسماعها، أو عزفها في داخلك، أن تشعر بأن صخور الجبل قد أصبحت أنامل اتخذت من النسيم الخفيف المار بها أوتارا تعزف عليها موسيقى صامتة، تتلقفها الأذن بخيط من الحاسة السادسة، فتنبهر مرايا الروح، لأن الجبل ذاته أصبح مرآة عاكسة للذاتية المتعطشة لاستحضار الماضي.
كانت "تاتو" تنظف بمنديلها ما علق بذقنها من الغبار، كما ينظف الصائغ جوهرته بحرص يفرض اللطف والحنان.. أخيرا رفعت عينيها إلى قمة الجبل التي يشبه لونها لون حلمة نهد متمرد، كانت

قوافل المساء قد اقتربت منذرة بليلة مظلمة.. قالت دون أن تلتفت إلي:
- إن كنت قد انتهيت من تأبين الماضي، فإني بحاجة للشاي.
- آه لو تعلمين من هم هؤلاء الرجال الذين وصلوا هنا ذات يوم!!.. بعضهم جاء من الأندلس محملا بالهزائم، لكأني أرى وشم الجراح على أجسادهم.. وبعضهم جاء على ظهر خيل لم يغلب أبدا في رحلة حرب امتدت من اليمن إلى هذه البقعة التي ترين.. أعرف تماما بماذا تفكرين.. صحيح أنني لا أملك الضمادات الكافية لجراح الماضي.. ولكن ليس بوسعي أيضا أن أملك ذاكرتي، لأنها جزء من هذا الحمض النووي الذي يشكلني..
ابتسمت، وهي تقول بلهجة ساخرة:
- أما أنا فقد أخبرني "رايت" بأنني أتشكل من قطعة حلوى..
- إن الحكم على الأشياء قد أصبح يخضع للتجربة العملية، ويبدو أن ذلك هو ما أوصل "رايت" للنتيجة التي ذكرت، أما أنا فيمكن أن أحكم عليك من خلال تجربة شعرية هي التي تفرض ظروفها وأدواتها.. وقد وقفت منذ نصف ساعة وأنا أستحضر معاني فحولة التاريخ، برجاله وخيله وسيوفه.. ويخيل إلي أن هذا الجبل بشموخه وصلابته قد يفتح أيضا شهية الحديث عن الأنوثة.. فهذه الشجيرات وتلك البطحاء الناعمة على قلتها تشكل زرا لتشغيل برنامج العواطف..
حط نسر ضخم فوق قمة الجبل كأنه يستطلع الغرباء الجدد، وأخذت "تاتو" في التقاط صوره قبل أن يرحل بأخبارنا، وبدأت في إنزال معدات المبيت من السيارة، أفرشت البطانيتين، وبدأت في إعداد الشاي، كانت ما تزال على بعد خطوات مني تفصل بيننا عدة صخور، كأنها تلك اللغة الصخرية التي تفصل بين حضارتينا..

ارتشفت الرشفة الأولى وشعرت بتأثيرها فقد دمعت عيني من تأثير المدة التي لم أشرب الشاي فيها.
- لماذا دمعت عينك؟ أبك ألم؟.. هل جرحت مشاعرك؟
قالتها وقد تحول وجهها إلى قطعة صلبة من الدهشة.
- لقد حرقني الشاي في حلقي.. ولماذا تستغربين؟ إن الشيء الوحيد الذي لا يستغرب في العالم الثالث هو الدموع... إنها معظم إنتاجه.. فالناس هنا لا يبكون فقيدا غاليا، بقدر ما يبكون لقمة العيش الفقيدة. ولأني أحسنهم حالا، فقد بكيت بعد شرب الشاي، إنني تمساح..
لم تهضم هذه النكتة السخيفة، وشرعت في ارتشاف الشاي والتهام البسكويت، ثم تمددت على ظهرها وأغمضت عينيها، بينما أنهيت صلاة المغرب، وتمددت بدوري ، فقد كنا متعبين حقا... كنا متعبين وكانت "تاتو" من النوع الذي يشخر في رقاده، لذلك أمضيت ساعات في محاولة لتسليم نفسي لمخفر النوم... شعرت بأن الجو من حولي قد تغير، فهناك إحساس خفي بأن كائنات ما على مقربة منا.. وأرجعت الأمر إلى الوسوسة والشياطين، وربما الخوف من مجاهل هذا الجبل.. لكن الأجسام التي بدأت تتشكل أمام عيني بطريقة بخارية، تبخرت معها محاولة الهدوء والاطمئنان.. كنت أرى جسمه واضحا، إنه كائن بشري، رجل في حدود الأربعين من العمر، متوسط الطول يميل لونه إلى الاحمرار، تولت لحيته الستر المجاني لصدره، وكان يلف ما بين سرته إلى ركبتيه برداء قطني أبيض، يقف حافي القدمين وفي يده اليمنى عصا نحاسية خالية من أي زركشة وفي يده اليسرى كتاب لا يحمل غلافه أي عنوان... كنت خائفا مرتجفا، وكأن منظر الرجل وحضوره غير المتوقع، شكل دوحة لمخاوفي.. وأخيرا تكلم.. تكلم وقال:

-((لا تخفْ.. اسمي عبد الله.. جئت متأخرا لئلا أزعج ضيفتك.. ربما لا تتحمل أعصابها بعض ما وراء الطبيعة الظاهرية، اسمع يا بني...
إن بذرة العظمة الموجودة فيك لا تعني أنك ستكون من عظماء الناس. فالبذرة الملقاة في أرض يابسة لن تثمر.. قد تأتي حشرة وتبول عليها فتبدأ في التفتق لكنها سرعان ما تيبس وتضمحل، وتكون بذلك خسرت كمونها إلى الأبد.
ولدت وفي جعبتك حرارة الانبثاق، تصورت أنك ستبلغ بموهبتك دوحة الأفق اللامتناهي فتمتع الناس بموسيقى الدوح.. في ذلك الواقع الافتراضي لما كان يجب أن تكون، يحفونك بالحب والتكريم تقديرا لعبقرية نادرة. إما أن تكون خالدا أو متنبيا أو حلاجا يغتسل قلبه بالأذكار فتنكشف الغيوب عن معنى الحياة الجوهري..
لكنك تسير اليوم وقد ابتللت ببول الحشرات، فاضمحل الكمون، ولم تعد أوراقه أكثر من هيكل متحرك على طريق معبد بالأشواك ورائحة المؤامرة والدناءة البشرية...
المنظر المعتاد في عينيك هو عشك المحاط بالقمامة بين أحياء الصفيح.. أوراق قليلة وكتب وصينية شاي ومذياع من العهد السوفياتي.. بعد الغروب الفلكي تصب الشاي وهو صديقك الوفي الذي لا بد أن تشتريه، سوف تمر عليك إحدى عوانس الحي وتكنس لك العش وتمكنك من ذيلها في حالة من الحزن المشترك بين عجوز فاتها القطار لكنها تجاوزت محطة الرغبة، وبين شاب درويش ترفضه القطارات بأزواج من التهم والريبة..
هب أنك كائن خرافي مسكون بأشباح الفلسفة والشعر.. صور مفبركة لذهنية مريضة..
أما العظمة والنياشين والخلود ومقاعد من أذرع المعجبين، فقد تكون لأي عارضة أزياء، أو أي مدقق حسابات حكومي..

لا تنس من أنت...
السيوف لم تصنع لرجال من خشب والقصائد العصماء تشترى بأي عملة محلية, أما "الحلاجية" فهي صفة للطهر وأنت غارق إلى أذنيك في الوسخ الجسدي...
يمكنك أن تصبح حاملا لمئزر راقصة أو جابيا للضرائب على الفقراء، أو مقبلا لأيادي أشياخ العقائد المختلفة..
... العواصف تمنع اشتعال شمعتك، لأن الاشتعال ممنوع بين الجماهير الخشبية، تمكنك مراجعة شجرة العائلة لتتثبت من أنك لست رسوما بلاستيكية تزين شجرة عقيمة.. مهما يكن فالدنيا أقدار... والصحراء التي عمرتها بالعلم والتمر أصبحت لا محاظر ولا مناظر، وتحولت إلى سد عظيم بينك وبين العشيرة التي تركتك يتيما تتبناه السموم ويقظة الجدب الأعظم..
الكوابيس تزركش نومك، رأسك بلا وسادة، كتفاك جناحا طائر تحملان ما شقي به جسمك من مثاقيل الطموح..
حتى الجغرافيا تتنكر!!..
صارت جبال آدرار كئيبة المنظر كأنها نهود زنجية محنطة، وصار سهل شمامة إبطا منتوفا لا يثير فيض الخواطر الخصيبة، أما "قلب إنيمش" و"أكرارت الفرس" و"آمليل"، فكلها أصبحت مجرد تشكيل يساعد على قراءة تضاريس البلد...
أما اليوم.. فأنت تحلم بالعطور والنساء والقصور وعواقب الميراث الحميد.. حتى الأرضة أكثر اهتماما منك بميراث الأجداد فقد التهمت مكتباتهم؟.. تمهل أيها المعظم أمره.. فأحبابك تفحموا بفعل نيران همتهم، وأنت مجرد معتوه أو طحلب خامل في حرث التوابل المعدة للتصدير، والمسافة بينك وبين ذرى المجد كالمسافة بين الضلالة والهدى..

هدئ خطوك في السفح المنهار، فالخطوات اليائسة هي سماد الوصول.)).
ومثلما ظهر فجأة اختفى فجأة...
أيقظتني الشمس وهي تغمرني بأشعتها الدافئة، ونظرت حولي فلم أجد "تاتو" التي كانت في ذلك الوقت جالسة على قمة الجبل تتأمل المنظر من حولها، شعرت بأن جسدي مليء بالجراح الداخلية، كان كل عضو مشغولا بالتداعي لنفسه من الألم والإرهاق، وكان لا بد أن ننصب الخيمة ونجهزها ونبدأ في نصب الأجهزة الإلكترونية على قمة الجبل لتباشر "تاتو" عملها، ففي الساعة الرابعة من مساء نفس اليوم لا بد أن تكون على اتصال بمركز بحوثها في مونتريال بكندا.. ومن ثم علي أن أبدأ أنا الآخر في وقت تال في بحثي عن الزراعة الجبلية في موريتانيا.
كان أمامنا جبل من العمل الشاق لا يقل وزنا عن جبل "أشتف"، بدأنا بحمل الكراتين إلى قمة الجبل ثم أخذنا في تفكيكها واستخراج المعدات منها لنبدأ أولا في حفر أساسات لأعمدة التثبيت.
ورغم بقايا تعب الأمس والجهد الذي أبذله في هذه اللحظة فقد حرصت أن أتولى نصيب الأسد من العمل تمشيا مع قيم الرجولة والمروءة.. ويمكن القول إننا كنا مرتاحين في الساعة الثالثة مساء بعد نصب الهوائي الضخم الذي قمنا بتركيبه قطعة قطعة بواسطة البراغي حتى بدا وكأنه قد تمت خياطته بخيوط حديدية من البراغي، ثم بدأنا بإيصاله بكابلات الكمبيوتر وقمنا بتشغيل جهاز الكمبيوتر الذي يعمل ببطاريات حافظة للطاقة طويلة الأمد. قامت "تاتو" بإدخال الرقم السري الخاص للاتصال بمركز البحوث ومر سرب ثوان قبل أن يرد الطرف الآخر وسط دهشتنا وفرحتنا، ولم أعرف مما دار في الاتصال إلا ما أخبرتني به من أنهم يوجهون لي التحية والشكر، وأن القمر الصناعي الآن بدأ في تتبع المجس

الفضائي "سير" الذي انطلق قبل عشر سنوات نحو الفضاء الخارجي في مهمة هي الأولى من نوعها، وهذا المجس يسير بسرعة عشرات السنوات الضوئية بفضل اكتشاف الفيزيائيين لقوة الدفع السداسي المغناطيسي لجسيمات صغيرة تشكل مركبات الألكترون، حيث يحدث ما يسميه العلماء بعاصفة الانفجار المغناطيسي للجزيئيات والذي يولد طاقة دفع خيالية، إلا أنه لا يمكن استخدامها إلا في المركبات الفضائية نظرا للسرعة ما فوق الضوئية التي تولدها والتي تجعل استخدامها على الأرض مستحيلا. ومهمة هذا المجس هي الوصول إلى ما يطلق عليه العلماء "مثلثات التجميع" وهي منطقة في الكون تتجمع فيها صور نشاطات كل الكائنات في الفضاء، وتصل هذه المعلومات بعد رحلة تستغرق أزمنة تقدر بالسنوات الضوئية حسب بعد كل كائن من مثلثات التجميع.. وهذه المنطقة تعتبر مستودعا لأعشاش النجوم، وأحداث الكون الغريبة، وقد وصل المجس "سير" إلى مسافة يمكنه منها بدء التقاط الصور الصادرة عن الأرض في القرن السابع عشر الميلادي وهي ما زالت في طريقها قبل أن تصل إلى "مثلثات التجميع"، وسيبدأ فورا في بث هذه الصور باتجاه الأرض.. وقد تم اختيار "أشتف" كموقع لمنصة الاستقبال بعد أن تبين بواسطة المسح المغناطيسي أنه أفضل مكان على الأرض لاستقبال بث "سير".

تركنا المعدات تعمل، ونزلنا للمبيت، حيث علينا في الغد تجهيز مقر الإقامة الدائم قرب المعدات، وسيكون مقر الإقامة هذا مؤلفاً من خيام بلاستيكية، يخصص بعضها للعمال الذين سيحضرون في الصباح الباكر ويتولون مهامهم، فيما ستخصص كبرى هذه الخيام لإقامتي أنا و"تاتو"، وهي خيمة كبيرة تضم عدة حواجز تشكل غرفتي نوم وصالون وقاعة للطعام، فضلا عن حمامين، وسيتم مد

شبكة أسلاك كهربائية من مولدات الطاقة تغذي الخيام بالإنارة والموصلات الضرورية لتشغيل أجهزة الكمبيوتر..

جلسنا على البطانية وأخذنا في التهام البسكويت فقد كنا جائعين، إذ لم نتناول - طوال اليوم - غير السجائر، وكان رأسي يؤلمني بشدة نتيجة لعدم شربي للشاي، فأسرعت في إعداده.

- لقد دخل العالم مرحلة خطيرة من تاريخه، تشبه الأحداث الكبرى في مسيرة البشرية.. إن هذا المشروع سيعيد كتابة التاريخ، فالمجس سوف يبعث إلينا بصور الحياة الماضية على كوكب الأرض.. وسنجد أكاذيب المؤرخين، ونتفرج على عباقرة العالم وهم يبدعون تحت خيامهم أو في بيوتهم الطينية أو في مساكنهم في عهد الثورة الصناعية... سوف نشاهد العبيد وهم يساقون إلى أسواق النخاسة أو يعذبون بسياط السادة وهم معلقون بجذوع الأشجار، أو وهم يشحنون في المراكب إلى أسواق أخرى.. وسوف نرى المبتكرين الحقيقيين وكيف تمت سرقة علومهم وأصبحت من نصيب آخرين سيسجلون من جديد في قائمة اللصوص الدوليين.. وسوف نشاهد زوجات الملوك والأباطرة وهن يتحولن إلى مومسات تحت خدمهن أو مرافقيهن أو عشاقهن المستترين بينما يكون أزواجهم يعقدون جلسات الحكم في قصورهم.. وسوف نشاهد ذلك العالم الفقيه أو ذلك القديس الراهب في الكنيسة وهو يمارس الجنس مع إحدى الراهبات أو حتى مع بعض حيوانات الكنيسة... وسوف نشاهد الإنسان البدائي في الغابات وهو يصارع الطبيعة، ليبقى على قيد الحياة وكيف تطور تدريجيا نحو المدنية... وسنشاهد كيف تمت حياكة المؤامرات وقتل القواد أو المعارضين للحكام بالسموم أو بالاغتيال بسهم في ليلة ممطرة ومظلمة.. وسوف نشاهد كيف اختل نسب تلك العائلة التاريخية الكبيرة بلحظة عابرة من ضعف امرأة أمام ضيف أو

عابر سبيل... وسوف نشاهد المعارك الحربية الفاصلة في التاريخ ..(تبتسم).. ومن يدري؟ فقد تتفرج يوما على معركة حطين وعين جالوت وربما معركة بدر بالصوت والصورة!!.. إنه تغيير جوهري في مجرى حياة البشرية يفوق خطورة تلك الهزة التي حدثت في عصر ظهور خريطة الجينيوم البشري وبدء عصر الاستنساخ... إنهم هناك سوف يفرزون ملايين الأفلام لملايين الأحداث، وسوف يحاط الأمر - طبعا - بالسرية التامة ويستخدم للأغراض العلمية فقط ولتصحيح الأحداث الكبرى في التاريخ.. فقد يصبح من حق كل شخص أن يحصل على أفلام وثائقية عن حياته العائلية على مدى التاريخ.. وسوف يدرك حجم مأساته عندما يكتشف الأصول الحقيقية لنفسه ولعائلته، وربما حقيقة مقدسيه على الأرض...!؟؟...

- تعالي، نغير مجرى الحديث.. فالمستقبل واضح وجلي في مثل هذه التطورات المتسارعة للتكنولوجيا.. لماذا نشغل أنفسنا بأشياء قدرية؟!... نحن في النهاية عبيد للقدر...

***

شعرت بأن الدموع تخطف مني بصري، فلم أعد أرى شيئا مما هو أمامي وتابعت خطواتي الوئيدة كأن أقدامي أوتاد مغروسة في الأرض لا بد قبل انتزاعها من بذل جهد، نزلت إلى واحة الحسينية، وأسندت ظهري إلى جذع نخلة، أحسست بأن فقرات جذعها تنغرس في فقرات عمودي الظهري، للدموع طعم متغير، ويمكنك أن تعرف الحالة النفسية لكل شخص من خلال مذاق دموعه.. أصبحت مشفقا على نفسي، وتمنيت لو أن العاطفة من الأعضاء البارزة، فيمكن عندئذ أن أبترها وأعيش بآلية عقلية محضة لا تعرف الهموم.. لم أكن أتصور يوما أنني سأقع في الحب إلى هذه الدرجة التي ينقطع معها الاتصال بيني وبين الواقعية.. هي اليوم كل شيء بالنسبة لي.. الغريب في الأمر هو هذا التشريح العاطفي لأعضاء من نحب!! فالشعر والجبهة والعيون والثغر والذقن والجيد والصدر والبطن والأرداف والسيقان... كل هذا الكيان الجسدي الواحد يتفرق في ذهن العاشق كما يتفرق الجيش الجرار في المعركة الحربية إلى خلايا وسرايا وفرق تطبق قبضتها الحديدية على العدو... وكما تتوزع السرية إلى أفراد يتخذون مواقع مختلفة، ينزع كل عضو في العشيقة إلى موقع حصين، فالثغر مثلا يشدك فيه من جهة لون شفاهه بتجاعيدها الصغيرة التي تشبه دبيب النمل في الرغيف النيئ، وتشدك فيه من ناحية أخرى الابتسامة

البرقية التي تخطف بصرك بثنايا كأنها ألسنة الشمع.. وهكذا تتوالى ملايين التفاصيل التي تحشو رأسك بعلوم وهبية في لحظة من تجلي المحبوب لم تكن متوقعة... إن كل عاشق هو عالم تشريح بالفطرة... أما اليوم فلا ألوم الشعراء في مبالغاتهم، ولا أكذب حديث المحبين لأنه - مهما كان - مجردُ غطاء شفاف لمعاناتهم.. وبودي لو اعتذرت عن سخريتي من قصص المغرمين وحكايات المحبين القدامى...

أعرف صوت مشيتها وأميزه وهي تقترب مني.. هذا الخطو الموقع كان يعزفه سدوم ولد انجرتو في "لبياظ".. جلست خلفي تماما ووضعت يدها على كتفي برفق بليغ، ثم مدت رأسها من فوق كتفي وابتسمت بحزن دون تعليق.. كانت ابتسامتها تعبيرا واضحا عن إشفاقها علي، إنها فعلا متألمة، ومعاناتها مزدوجة، فهي تحب "رايت" وتحترم شابا إفريقيا ضلت مشاعره الطريق في متاهات المستحيل، ولكنها لا تملك غير الإشفاق والعطف الأخوي، وهذا كل ما لديها، كل ما يمكنها، وهي الأخرى تتعذب بعاطفتها، وربما أشياء أخرى فيها... كان رأسها لا يزال مطلا من فوق كتفي الأيمن وكأنني إنسان خرافي ولد برأسين..

- تعال إلى خيمتنا فسوف أسليك.. إنك أكبر من الحب.. أنت إنسان عظيم حقا.. وأكن لك تقديرا خاصا.. لم نولد في قارة واحدة، ومع ذلك نشعر اليوم بأننا من نفس واحدة..

قلما بكيت في حياتي، بالرغم من أنني ولدت في بيئة ألمية وتربيت فيها، إن عيوني دائما مثل الآبار التي غارت مياهها، وهذا المساء تبدو كريمة، وهو الكرم الذي لا يرغب فيه أحد.. جلسنا تحت الخيمة متقابلين، وأخذنا ندخن بشراهة وهدوء كأننا نتأمل نص مسرحية فلسفية، قالت لي إنها عاشت حالة مشابهة لما أنا فيه وهي لا تزال طفلة وإنها اكتشفت أن الحب الأول مهما كان قويا وبراقا

لا يدوم مثل الأسنان اللبنية، وأن الحب من الناحية العلمية حالة من الأنانية، يطلب صاحبها الحصول على رغبته، لذلك نحن نحب العسل والعصير.. والجنس.. لماذا؟.. لنشبع أجسامنا العطشى أبدا.. ولتستمر عجلة الحياة في دورتها الأبدية...

- لقد كان أبي فيلسوفا وكان مولعا بالحضارة الشرقية، فحدثني عن الشرق، بأنبيائه وصالحيه ودكتاتورييه، حدثني عن أهراماته وحدائقه البابلية.. حدثني عن النقوش الفرعونية على معابد الآلهة، وعن أسد بابل الذي يستولد التاريخ من فحولته.. وعن النيل والفرات، وجبل قاسيون.. وصف لي شهرزاد تلك المرأة التي تعتبر أول مناضلة في التاريخ.. ما هو سر سحر الشرق؟

وأطبقت شفتيها على السيجارة متمددة قليلا إلى الوراء .. كأنها تفسح المكان للجواب..

قلت في نفسي: إن هذه المرأة تحبنا جغرافيا وتسخر منا تاريخيا، فهل يصل بها حسن الظن لحاضرنا؟.. إن الحب أناني، لا يترك لغيره مجالا تحت فروة الرأس، فكيف أجيبها.. وهل تصل هذه العلاقة بيني وبينها إلى حالة من الهروب المخيف من الذات...

- هناك مشكلة تعانون منها أنتم الغربيون، وهي أنكم تتعاملون مع الشرق وكأنه "ألف ليلة وليلة".. خططكم، وقراراتكم مع الشرق، مبنية كلها على قراءتكم لألف ليلة وليلة.. الشرق في نظركم ثابت لا يتغير مثل تلك النصوص.. والمجتمع نفسه هو المتحرك في هذه "الليالي".. والعالم الثالث بصفة عامة لا يشرق عليكم منه إلا خرافاته.. أما الواقع، فيزّاور عنكم ذات اليمين وذات الشمال، وقد حان أن تخرجوا من كهف "ألف ليلة وليلة"، لكن ذلك سوف يلغي صلاحية وريقكم، وهذا ما تخافونه.. لقد جئتم من هذا الشرق، ولا أحسب إلا أنكم ستعودون إليه، أو يستعيدكم، إنكم تسعون للبحث عن حياة أخرى على أي كوكب في هذا الكون هربا من الشرق

الذي يحاصر ضمائركم.. لا يمكنكم الاستمرار في هذا الحصار الإلكتروني للعالم، حيث تعدون أنفاس النمل والبشر على حد سواء.. إن المقاومة فاشلة إلى حد الآن، وبالرغم من ذلك! فإن ضعفاء العالم يستخدمون ضعفهم لحدوث هذا الدمار الهائل..
لاحظت أنني ربما كنت قاسيا بفعل حالتي النفسية، ويجب أن لا أسمح لعواطفي بأن تغير مجرى الأمور على قمة هذا الجبل النائي، يجب أن لا يدخل اليأس خيبتي العاطفية مثل زوبعة تطيح بأطناب الحياة في هذا المجتمع الصغير.. فابتسمت وأضافت:
- "لكنكم جميلون.. جميل أن يظل هناك صراع.. إنها طبيعة الحياة.. والأرض بلا جلبة كوكب ممل.. لن تكون هناك جمهورية أفلاطونية ولا فارابية.. سيكون هناك صراع.. وسيكون هناك دائما الإنسان.. ذلك الإنسان الذي هو هو أينما حددت شهادة ميلاده بقعة أرضية معينة.."..
في تلك الليلة المقمرة الصافية على عكس مزاجي أويت إلى فراشي، لا يزال صوت "تاتو" في مخبئها بالخيمة يتناهى إلى أذني، وصوتها وهي تخلع ثيابها، وصوتها وهي تلبس ثوب نومها.. وهي تتمدد على سريرها.. وتنحنح.. وبدأ النعاس يدب في جفوني شيئا فشيئا.. وما هي إلا لحظات وعادت اليقظة التامة، تبدد النعاس فجأة دون أثر كما يتبدد النوء من السماء متجاوزا..
وأحسست أن معي في المكان حضوراً ما.. بدأ يتشكل أمام عيني بطريقة بخارية .. كنت أرى جسمه واضحا، إنه كائن بشري، رجل في حدود الأربعين من العمر، متوسط الطول يميل لونه إلى الاحمرار، تولت لحيته الستر المجاني لصدره، وكان يلف ما بين سرته إلى ركبتيه برداء قطني أبيض، يقف حافي القدمين وفي يده اليمنى عصا نحاسية خالية من أي زركشة وفي يده اليسرى كتاب

لا يحمل غلافه أي عنوان... خيل إلي أنه ألقى التحية رفع يده إلى السماء وقال:
- ((مضغا لذكرى الأجداد، أو يأسا من عقم الواقع السريالي، تجد خطوك الرتيب في حركة دائرية، كأنك في المساءات الواسعة مجرد رغوة للحضور الخصيم.. تتوزع كلماتك في الفراغات الضيقة كما تتوزع الورود في النباتات الشوكية..
كان جدك يداعب خيله على تلة نائية وسط قعقعة الفراغات الممتدة من تل رملي إلى آخر، وكان يشاهد الفرسان يعبرون من الأندلس حاملين جراحهم، مثقلين بأعباء المعركة..
كان جدك يحسب الأبعاد بين المدارات الفلكية بحصى الرمال، وهو يحفظ القصائد الجاهلية ويشارك وجدانيا في الحرب مع الزير سالم، دون أن تنبح الكلاب الضالة لتفزع الأطفال النائمين تحت الخيام العالية..
وكنت مشغولا بفلسفة الطبيعة، غارقا في السببية الحتمية لاختلاف المحيط البيئي، فصراخ الصمت المهيب في وديان الملح، والرقصات الصوفية لأغصان الطلح والأراك، واختلاط العطور العشبية في الأودية العميقة.. كلها مؤكسدات طبيعية للجاذبية النفسية نحو البحث عن الأصول...
ليس الأمر بيدك.. وليست مسبباته هي الأخرى رأي عينيك.. أو مرتع حلمك القريب.. لو أصبحت عشابا لكان ذلك على الأقل مدعاة للسخرية الغضة فيما هو موجود.. ولكنك انغمست في التماع المغارات العميقة للانهزامية المبكرة.. لتصبح الذاكرة دليلاً على أنك كنت يوما ما موجودا...
أما وقد أصبح وجودك مقتصرا على الحبر اليابس.. فأنت حالة حبرية مجردة في التفكير الجمعي لهواة التراث...
من حقك أن تصرخ اليوم في الوجوه الباهتة:

أيها العابرون فوق المروج النارية، مخضبين بالطين، عابثين بالمسار، مقنعين بالفقاعات البيضاء، غارسين الأمل في حوامض التيه والضياع..
أيها الناظرون إلى النجوم البعيدة، ليس كل مرئي يدرك.. ولا كل براق مضيئا.. ولا كل مظلم شرا.. وليس كل خطو مقدما.. ولا كل اندفاع منجيا..
أيها المتعبون من رثاء الخيول والحالة العامة، الباكون على القيم النيرة، والسيرة العطرة لأمهات النهوض والانبعاث من الجاهلية الإلكترونية إلى صراط الله المستقيم...
أيها القابضون على جمر القضية العامة.. المتألمون من سهام الكل.. المستحمون من دموع الجراح الجسدية...
لقد أصبحتم هدفا للرماية المسلية.. كل يرميكم في وقت فراغه بما تيسر له من صخور.. فهل أنتم شياطين في موسم الحج البشري؟!..
من زرع فيكم السكون إلى هذا الحد المظلم؟!...
تذكروا دائما أن لكم ذاكرة من حبر.. وصراطا من ضوء.. وتذكروا أنكم كنتم تطلبون السماء... تذكروا أن من تقاليد الخيل أن تعود للسباق وهي متعبة.. تذكروا.. تذكروا..)).

***

شعرنا بأن الجو يكاد يخنقنا لارتفاع درجة الحرارة، عقب تناولنا لوجبة الغداء، فقررنا أن نتجه إلى "الحسينية" وهناك نتناول الشاي، وما إن دخلنا نفق "الحسينية" حتى تغير الجو كليا، فهذا المكان المكيف طبيعيا يبدو غريبا وسط هذا الجو الحار الجاف.. فرشت بطانية خفيفة بين نخلتين، ووضعت أدوات الشاي وبدأت في إعداده واتخذت "تاتو" من صخرة كبيرة متكئا لها حيث تمرفقت قبالتي فيما هي تتمتع بمنظر النخيل، وصوت خرير المياه المتدفقة وسط العشب الذي يحف مسارها كأنه إطار لمرآة من القرون الوسطى.. لقد أصرت مرات على أن تتولى إعداد الشاي لكنها كانت دائما تصبه صافيا وهو ما لا أطيقه، لا بد لي من أن أشرب شايا تعلوه الرغوة، وإلا شعرت وكأنني لم أشربه.. الشاي من خصوصياتي ويبدو أنه أيضا أصبح من خصوصيات "تاتو" فهي الأكثر حرصا على تناوله دون غيره من المشروبات.. وأخذنا نرتشف كؤوس الشاي، صامتين كأننا في جلسة صوفية للتمتع بالطبيعة الساحرة لهذا المكان، وفجأة سمعنا صوت "عبود" وهو قادم إلينا فزاد تراكم الصمت على بعضه..
جلس فاغرا فاه عن أسنانه السوداء كأن ثغره حفرة في الطين، أو جرف مظلم، واندفع يحكي دون أن يلقي علينا التحية:
- لقد رفضت.. رفضت، وهددني أهلها بالضرب، ولكنني جئتكم بكل الطلبيات، اشتريت ثلاثة خرفان سمان، والأرز والسكر، والمناديل التي طلبت "تاتو"، وجئت بالرسالة التي وصلت من

مركز الأبحاث،.. أين الشراب؟ إني عطشان.. ولا بد لي من العودة لمريامه حتى أسوي المشكلة.. لن أظل هكذا، إما زواج حقيقي أو طلاق لا رجعة فيه.. كل ما حدث بسب تدليلي لها، وكرمي معها.. "مريامه" كانت قبلي تعيش في أسرة فقيرة لم تشبع قبل أن تتزوجني.. لقد ذهبت بها من الريف وحياته الخشنة إلى المدينة.. وأذكر كيف كانت شقوق قدميها وشعث شعرها وكانت جافة الأعضاء كأنها حزمة حطب يابسة.. نقلتها إلى المدينة وأسكنتها منزلي وأغدقت عليها حتى أصبحت سمينة ملساء أخاف أن تنزلق من تحتي ورزقنا بالأطفال، "مبارك"، و"جارية"، و"سداتي".. وفي ظل غيابي للعمل والكد من أجل إسعادها، عرفت طريق صالونات الزينة واكتشفت ثروتها الجمالية وبدأت تتمرد علي.. وكل ذلك بسبب ذلك القواد اللعين "جياب" هو الذي قادها لطريق هذا الشاب الجامعي الذي أغرمت به، وصارت لا تطيقني، كشعر إبطيها، إنه هو الآخر متعلق بها وكأنه سيعد رسالته عن فن التفريق بين الزوجين.. لن أسكت. سآخذ معي أبنائي وأترك الجري وراء رغبات هذه الحية الرقطاء.. المرأة أفعى تجدها في البرد القارس متجمدة كالميت وتلفها في قميصك وعندما تحس بدفء صدرك تتحرك وتلدغك.. ليس بإرادتها، إنها إرادة السم الذي يملأ جسمها، ويكاد يتهتك به..

وينتبه لابتسامة "تاتو" وهي تستمع باستغراب، فيسكت وقد اعترته مسحة خجل، ويواصل حديثه وهو يحاول مواراة رعشة خفيفة تسري في يديه:

- لا أعني المرأة الغربية.. هذه تحترم نفسها.. لأنها واعية..

وسكت.. مد يده لكأس الشاي الساخن وارتشفه دفعة واحدة كأنه يطفئ النار بالنار..

أحاول أن أغير مجرى الحديث، فأتشاغل بتعديل وضع الإبريق على الغازية.. أتابع غليانه وقد أطلق البخار وأصدر غطاؤه صفيرا متواصلا يتداخل مع أنغام المياه الجارية.. كان وجه "عبود" لا يزال جافا يذكر منظره بمنظر قشرة الغصن اليابس... "عبود" هذا الرجل البالغ من العمر أربعين عاما يبدو وكأنه شيخ في السبعين من عمره، طويل القامة، منحني الظهر، كان منظره يوحي بأنه قد مارس أعمالا شاقة، هو نفسه حكى لنا عن عمله كحمال في ميناء انواذيبو، وعن صباه وهو يعمل في حقل والده منذ الصباح حتى المساء دون راحة أو طعام.. ثم أصبح سائقا للشاحنات الكبيرة، ومن ثم اعتقل بتهمة التحريض على إضراب العمال وتم تعذيبه مدةً قبل أن يطلق سراحه ويتم استدعاؤه من حين لآخر لاستجوابه كلما كتب شعار على جدار أو تم إضراب في مؤسسة ما أو نشر صحفي تحليلا إخباريا عن وضعية العمال. ويبدو أن حصوله على العمل معنا في "أشتف" قد أنقذه من وضعية المتابعة البوليسية، ولذلك كان متحمسا في حديثه خلال جلستنا الأولى مع زملائه الثلاثة الذين اكتتبناهم بعد أن سارت الأمور على ما يرام في مركز المتابعة، حيث كان لا بد من أربعة عمال يتولون شؤون الحراسة والتنظيف وإعداد الطعام وغسل الثياب وغيرها من أمور، وقد آثرت أن يكون كبير الخدم من العاصمة ومن حمالي الميناء بالخصوص لاحتكاكهم بالأجانب، بينما كان من الطبيعي أن يكون باقي العمال من المجرية لما يوفره قرب أسرهم ومساكنهم من فوائد وحتى من معرفة المحيط نفسه في جولاتنا الترفيهية.

ينظر "عبود" إلى ما بقي من إبهامه وبنصره جراء حادث عمل تعرض له قديما، ويقول إن الأمر بالنسبة إليه حادث لا ينسى..

- كان لا بد أن أبترهما، فقد فسدا كليا، وعلي أيضا أن أبتر جزءا من أسرتي.. البتر الأول كان بفعل آلة صماء لا تحس ولا تفهم..

والبتر الآخر بفعل شيطان بشري، إن الجماد أرحم بنا أحيانا من بني جلدتنا.. أتذكر ذلك المساء عندما كان صاحب شركة "شمشون للتحميل" يراقبنا ونحن نشحن الحاويات، فقد سقط علي كرتون وانفجر فوق رأسي لتجرحني علبة معدنية صلبة جرحا عميقا في الرأس.. لقد نظر إلي وكأن الأمر حادث عادي، وعندما رأى نزيف الدم على جبهتي ابتسم وهو يرمي إلي بقارورة عطر كانت في جيبه لأوقف النزيف بالمسك وكأن جرحي عريس سيزف!؟..
كنت أتبادل النظرات مع "تاتو"، كنا نفهم الحالة النفسية للرجل.. فهو عبارة عن مزرعة للجراح، وبرغم خشونة جسمه الظاهرة وعلامات القوة العضلية التي ما زال يتمتع ببقاياها، فإنك تشعر بأنه شخص رقيق الإحساس، سهل الانكسار..
رن الهاتف النقال فقفزت "تاتو" واقفة ترد على المكالمة وهي تسير بخطوات مرتبكة، مرة تتقدم إلى الأمام ومرة إلى الوراء، وتغمس قدميها حينا في الماء وكأنها لا تشعر.. كانت تتحدث بفرح عارم وتطلق الصيحات بأسماء.."ماما".. "رايت".. "نانسي".. وتمد يدها باتجاهي وتصرخ بحديثها، وكنت أنا و"عبود" نسمع حينا حديث الطرف الآخر دون أن نفقه غير أن "تاتو" على اتصال بأهلها أو بمركز الأبحاث.. ثم اقتربت مني بسرعة ووضعت السماعة على أذني، وهي تردد: "ماما".. وصوت يقول: "تانك يو.. تنك يو.. تنك يو.."، وكانت أنفاس "تاتو" تهب على وجهي حارة، تنتظر عودة الهاتف إليها، لم أرد على والدتها، لأني لا أعرف لغتها وقد أحسست فعلا من صوتها بأنهم يكنون لي تقديرا خاصا.. واستمر الحديث بين "تاتو" وذويها لساعة طويلة حتى بدأت العتمة تزداد في "الحسينية" ما يوحي بشروع الليل في حط أثقاله، فخرجنا متجهين إلى الخيمة..

في الخيمة أخرجت أوراقي وبدأت بتدوين ملاحظاتي العلمية حول التجارب التي أجريتها في ذلك اليوم.. أفضل دائما استخدام الأوراق التقليدية فهي تعطيني الإلهام، ولا أطيق العمل على الكمبيوتر المحمول إلا في المراحل الأخيرة لتنقيح العمل.. اقتربت "تاتو" مني وانحنت فوق كتفي تلفحني بأنفاسها الحارة المعطرة، وهي تتفرج على ما أكتب وما أرسم.. ثم انزوت في الركن الشرقي للخيمة وأخذت تدخن وهي تنظر إلي كأنها تحن للدخول في تلك الأحاديث المتنوعة، لكنني واصلت العمل متجاهلا رغبتها، ثم ما لبثت أن سمعت شخيرها يعلو، وفي الساعات الأولى للصباح أطفأت المصباح وأسلمت نفسي للنوم..

***

بدأت أسراب الفجر تظهر مطلقة قيود الرؤية، وكأنها تغسل الكون من بقع الظلام.. اصطففنا لأداء صلاة الفجر، فيما كانت "تاتو" قد اتخذت مكانها في المقاعد الخلفية للسيارة، وما إن سلمنا حتى هرولت أنا و"عبود" باتجاه السيارة ليجلس خلف مقودها ويدير المحرك وأجلس أنا إلى جنب "تاتو"، فالرحلة اليوم ستكون شاقة بلا شك، ولم نبتعد قليلا عن المجرية باتجاه الغرب حتى دخلنا في محيط هائل من الرمال والكثبان التي تكاد تبتلع سيارتنا بالرغم من أنها سيارة دفع رباعي معزز، لكن بحر الرمال هذا لا يتنازل عن "عفته" وهو يضرب المثل دائما للمغامرين ويلقنهم دروسا صعبة تتجلى في جثث السيارات المتهالكة التي نمر ببعضها من حين لآخر وكأنها لافتة إنذار، ويزيد من هول الأمر تلك الحكايات الشعبية المنتشرة عن هذه المنطقة عبر تجارب السكان والوافدين..
وفيما كان "عبود" يبذل قصارى جهده لتفادي المطبات فقد أصبحت السيارة أشبه بزورق يصارع الأمواج العالية، يعلو ويهبط من ربوة إلى أخرى ويميل حتى نظن أننا سنلامس التراب من نافذة السيارة وهي تهتز وترتجف كما لو أن حمى أصابتها..!!
وتشرق شمس الضحى ملامسة الرمال الذهبية الناعمة لترتفع درجة الحرارة إلى حد لا يطاق حتى أصبح مكيف السيارة وكأنه اعترف بغلبة الطبيعة، فلم يعد يمدنا إلا بالريح السموم، وأخذنا نستهلك المزيد من قناني المياه المعدنية المعبأة لتعويض السوائل

التي تخسرها أجسامنا المتصببة عرقا مما اضطرنا للتخلص من معظم ملابسنا الثقيلة، كانت الهزات العنيفة للسيارة والتي تسببها النتوءات والمطبات الرملية وارتفاع صوت محرك السيارة الناتج عن الجهد المضاعف الذي يبذله، كافية لأن تمنع تبادل الحديث فقد أصبحنا وكأننا قطع من اللحم تقلى في مرجل ساخن، وتنزل السيارة من منحدر رملي عميق، فيقول "عبود" وهو يدخن:

- هل ترون ذلك النتوء الصخري البعيد؟.. سنصله عند الساعة الثانية والنصف تقريبا وهو يبعد عشرين كيلومترا عن الموقع.

ونلقي نظرة على جهاز تحديد المسافات لنتأكد من معلومات "عبود"، ونواصل صمتنا دون تعليق على حديثه؛ فقد أخذت منا الرحلة حتى الآن جهدا كبيرا بالرغم من أننا لم نقطع ثلث المسافة.. لكن "عبود" لا يفتأ يتحدث وكأنه جهاز تسجيل لا يمل، تارة يلطف الجو بنكتة، فالرجل رغم الجهد الذي يبذله لا يبدو عليه التعب وخاصة عندما يتحدث عن تجربته ليلة أمس مع أصهاره، وقصة إحضاره لأسرته.

- "مريامه" امرأة ضعيفة مع ذلك.

- إنهن يا عزيزي لا يعرفن الضعف.

واحتضنتني "تاتو" بنظرة عتاب.

- ما هو تاريخ عيد ميلادك.. فهناك مفاجأة أخبئها لك لن تصدقها؟

فكرت في أن أكذب عليها لأعرف ما هي هذه المفاجأة التي لن أصدقها، لا شك أنها مفاجأة حقا، فـ"تاتو" غير مازحة، ولكن ربما اطلعت على جواز سفري وقد تكون على علم بموعد ميلادي وقد تطلب إثبات ذلك، فالأفضل أن لا أكذب، وربما تكون هذه المفاجأة قريبة لا تحتمل الانتظار.

- لقد مرت ذكرى ميلادي يوم أمس.

قالت مندهشة:

- لا. لا يمكن أن أصدق وكيف لم نحتفل بها.؟؟!؟
- لا أهتم بمثل هذه التقاليد.. ما هي المفاجأة؟
- لا.. عليك الانتظار لمدة سنة كي تعرفها.. إنها مفاجأة ولا بد لها من مناسبة كبرى كعيد ميلادك.
وفهمت أن لا جدوى من محاولة معرفة هذه المفاجأة وعلي الانتظار لمدة سنة.. وربما تكون هدية مالية أو الحصول على وظيفة، أو شيئاً من هذا القبيل.. لا يهمني الآن وسط هذا الجو الخانق بالرغم من أن حضور "تاتو" ينعش جراحاتي القديمة اللذيذة.. شعرت بأنها تقرأ أفكاري، فأطلقت دخان السجائر من فمي، وأرسلت ابتسامة كأنها شعلة النار التي تعقب الدخان... وتشاغلت بالنظر إلى سلسلة الرمال التي نمر عبرها متجاهلا ما تفكر به.
- هذا الكثيب يسمى "لعليب" يقولون إن "الغصاص" بينما كان مسافرا التقى بجيش كبير من أعدائه حيث كانوا يترصدون له، فاشتبك معهم في قتال منذ الصباح وحتى المساء فقتلهم جميعا وقرر المبيت عند هذا الموقع، وفي الصباح قام غلامه بإحصاء القتلى فوجد عددهم خمسمائة قتيل وأربعة قتلى، وعندما تفقد ذخيرته وجدها ناقصة خمسمائة رصاصة وخمس رصاصات، لكن "الغصاص" قال له:
- فتش بندقيتي وستجد الرصاصة الباقية!..
في الرابعة والنصف مساء وصلنا الحافة الشرقية لذلك الكثيب الكبير الذي تخرج من رأسه صخور كبيرة داكنة وكأنه رجل أصفر يضع قبعة سوداء على رأسه.. كان ظل الكثيب يصلنا ملطفا شيئا ما حرارة الجو، ورغم ذلك فقد تمددت أنا و"تاتو" على البطانية التي فرشناها وتركنا مهمة إعداد الشاي والطعام لـ"عبود".. فرغم الجهد الذي بذله لا يبدو عليه التعب، أما نحن فقد

بلغنا قمة الإرهاق والتعب.. واكتفينا بالتدخين وبتناول ما يقدمه لنا "عبود" من شاي وشواء وهو لا يفتأ يحكي قصة من هنا وقصة من هناك.. ومضى الوقت سريعا فلم يحل الغروب حتى تبدل الجو مديرا وجهه للحرارة تاركا البرودة تأخذ دورها في هذا المكان، وقد كدنا نتعشى ونحن شبه نائمين واستخدمنا كل ما نملك من أثواب وبطانيات لوقاية أجسامنا من البرد القارس لكن ذلك يبدو أنه ذهب أدراج البرد، فذهبت في الساعة الرابعة صباحا ودخلت السيارة وما كدت ألف جسمي في مقاعدها حتى شعرت بـ"تاتو" هي الأخرى تلف جسمها بجنبي وتضع جزءا من بطانيتي على بطانيتها، فيما بقي "عبود" يشخر قربنا في الهواء لا يغطيه غير السماء، ولم نستيقظ إلا والشمس قد بددت البرد والظلام.. فخرجنا من السيارة كما تخرج الأرانب من مغارتها، أو كما تخرج الفراخ من بيضها وبدأنا في إعداد الفطور على وجه السرعة.

- أين "عبود"؟

- لا أعرف.. ربما ذهب لحاجته..

ومع شروعنا في تناول الإفطار رأينا "عبود" وهو قادم إلينا يهرول.

- انتظروني فإني جائع.. لقد استقيظت في الصباح الباكر وقمت بجولة تفقدية في المكان، هناك وراء التل وجدت أرانب صغيرة ولدت قبل ليلتين فقط وهي تنام في غار، أما في الجانب الشمالي للتل فقد وجدت مقبرة كبيرة يبدو أنها مسكونة بالعفاريت فقد رأيت رجلا نائما في حفرة ولما اقتربت منه شعرت بقشعريرة في الجلد وعرفت أنه جني يتلاعب بي، فتركته وعدت وأنا أبسمل وأحوقل.. وآه.. نسيت، هناك خطر!!.. فقد وجدت أثرا لأسد مر هذا الصباح من الجانب الغربي للتل، وقد لا يكون بعيدا فعلينا اتخاذ الاحتياطات..

كان ذكر الأسد كافياً لإثارة الذعر لدى "تاتو"، فتوجهت إلى السيارة وأخرجت البندقية منها وقمت بحشوها وتحييد أمانها لتكون جاهزة في لحظة الخطر لا قدر الله... وبعد أن اطمأنت "تاتو" لتجهيز البندقية توجهت هي و"عبود" إلى الحقيبة الموضوعة في مؤخرة السيارة، وفتحتها وأخرجت منها جهازا صغيرا بحجم كتاب جيب وأعطت لعبود خيط "المتراج" (القياس)، وبدأنا في الصعود نحو قمة التل الذي كان ينحدر سفحه بشكل شديد، وضعنا "تاتو" أمامنا وبدأنا في محاولة الصعود فوق الرمال التي تسيل معنا كأنها قطع الزبدة تحت لفح الشمس الحارقة، كنا نخشى من أن تنزلق "تاتو" ولذلك كنا قريبين منها وبعد ربع ساعة تمكنا من الوقوف نحن الثلاثة على الصخور الرمادية التي تحتل قمة التل، والتي ربما كانت هي أساس هذا التل، فقد يكون جبلا ألبسه زحف الرمال هذا الثوب الذهبي ليبدو وكأنه تل رملي.. ضغطت "تاتو" على زر في الجهاز الصغير بعد أن غرسته في الصخور وثبتت قاعدته بالتراب وأخرجت منه هوائيا صغيرا.. بعد لحظات بدأ الجهاز يصدر رنينا متواصلا ثم لمعت شاشته الصغيرة التي لا يتجاوز اتساعها حجم علبة الكبريت، وبدأت جداول من الأرقام تظهر على شاشته وهي تتحول وتتبدل باستمرار، وبعد عشر دقائق انطفأت الشاشة فجأة ثم ظهر سهم يشير إلى اتجاه الغرب وعند رأسه رقم مائتي متر، ما يعني أن الحجر الذي نبحث عنه يوجد عند السفح أو قربه، وأخذ "عبود" خيط "المتراج" ونزل بسرعة منزلقا على سفح التل و"تاتو" توجهه حتى وصل مكانا معينا فقالت لي:

- هيا بنا... إن الحجر هناك..

- ونزلنا نحن بدورنا منزلقين بسرعة وعند قدمي "عبود" بدأنا نحفر.

- بهدوء.. بهدوء.. إنه قريب منكما.. المؤشر يقول ذلك.

وعلى بعد متر واحد بدأت أصابعنا تلمس جسما صلبا أملس، وبخبرة علماء التنقيب عن الآثار أخرجنا الحجر بهدوء ومسحنا عنه ما علق به من تراب وغبار ليظهر حجرا من نوع غريب لم أشاهده في حياتي، إنه أملس وصلب إلى حد جعله يشبه لوح زجاج، وإن كانت مادته ليست قطعا من الزجاج .. تفحصت الحجر جيدا، إنه مربع الشكل بطول خمسين سنتيمترا، ولا يضم أي نقوش، ولا أي علامات تدل على أن له أهمية ما، ومع ذلك فقد أخذته "تاتو" ولفته في قطعة بيضاء من القطن واحتضنته، كأنه وليد خرج للتو إلى النور، وسلكنا الطريق الجنوبي للتل ليسهل علينا الوصول إلى السيارة حيث وضعته "تاتو" في كيس من النايلون، وأغلقت عليه الحقيبة وهي تشعر بارتياح وفرح كبيرين، فيما كنت أنا و"عبود" لا نزال نشعر بثقل هذا اللغز..

بدأت السيارة تتحرك، طلبت من "عبود" أن يمر بنا على الأرانب لأجلبها لأطفاله، وشجعته "تاتو" على ذلك، فهي تحب الأطفال إلى حد كبير، وما هي إلا دقائق حتى نزلنا ووقفنا أمام جحر صغير تحت شجرة طلح، ومددت يدي آخذ أرنبا تلو الآخر وأناوله لـ"تاتو" التي وضعتها في كرتون ووضعته في مؤخرة السيارة، وانطلقنا من جديد..

- عليك المرور بالمقبرة التي ذكرت لنزورها ونقرأ على أرواح سكانها الفاتحة...

- إنني خائف فعلا فهي مقبرة مليئة بالشياطين والعفاريت.. تصور، يظهر لي عفريت ظنا منه أنه سيخيفني!!..

توقفت السيارة في الجانب الشرقي للمقبرة، ونزلنا منها، وقفت عند أول قبر وبدأت بالأدعية وبقراءة الفاتحة، فيما رأيت "عبود" يقود "تاتو" للجانب الغربي من المقبرة حيث ادعى أنه شاهد رجل الجن.. تجاوزت إلى قبر آخر وأنا أحاول قراءة أسماء الموتى

وتواريخ وفياتهم على الصخور المنصوبة عند كل قبر.. يبدو أنها مقبرة من القرن الخامس عشر الميلادي، أو نحو ذلك، وفجأة سمعت صوت صرخة مدوية في الجانب الغربي للمقبرة ورفعت بصري لأرى "تاتو" تجري باتجاهي و"عبود" يجري خلفها والهلع باد على كليهما، وعلى بعد مترين مني قفزت "تاتو" في الهواء لتتعلق بعنقي وهي تبكي وتصرخ في هلع شديد وتنفض رأسها وجسمها يرتجف، تنبهت إلى الموقف المحرج دينيا حيث هذه الأجنبية المتعلقة بعنقي بين مقابر المسلمين، وتوجهت بها إلى السيارة و"عبود" يهز رأسه غير مصدق لما رأى أو ما حدث..
- قلت لك إنه عفريت.. إنها مقبرة مسكونة بالشياطين.. لقد رأته بعينيها وأنا أيضا رأيته للمرة الثانية..
حاولت طمأنتها وتهدئتها وتركتها مع "عبود" الذي تعلقت بعنقه تخفي وجهها في ملابسه، وتوجهت إلى الجانب الغربي للمقبرة فلا بد أن أعرف الأمر بنفسي، أحسست برهبة شديدة وأنا أجتاز القبور لأطل فوق مرتفع رملي صغير يفصل المقبرة إلى شطرين وما كدت أتجاوزه حتى رأيت ذلك البياض في حفرة في الجانب الشمالي الغربي.. أحسست بأن ركبتي تكادان لا تحملاني، إلا أني صممت بإرادة مجهولة المصدر على الوصول إلى هذا الشيء الغريب وقفت على حافة الحفرة الطويلة العميقة ونظرت.. إنه هو .. هو بعينه.. إنه هو.. أرى جسمه واضحا إنه كائن بشري، رجل في حدود الأربعين من العمر، متوسط الطول يميل لونه إلى الاحمرار، تولت لحيته الستر المجاني لصدره، يلف ما بين سرته إلى ركبتيه رداء قطني أبيض، متكئ حافي القدمين وفي يده اليمنى عصا نحاسية خالية من أي زركشة وفي يده اليسرى كتاب لا يحمل غلافه أي عنوان.. إنه هو.. يبدو وكأنه حي يتنفس، يميل ثغره المطبق إلى الابتسام.. شعرت باطمئنان غريب يغزو جسمي،

وأحسست بقوة غريبة تشدني إلى هذا الرجل، تمعنت فيه جيدا وقلت في نفسي إنني لو كلمته لأجابني.. بعد دقائق كنت فيها أسرح في عالم مجهول، بدأت أهيل عليه التراب، حتى سويت القبر، وجمعت بعض الصخور ووضعتها على قبره وكتبت فوقه البسملة وقرأت على روحه الفاتحة ودعوت له، وحشوت جيبي من تراب قبره للتبرك، ثم توجهت بخطوات وئيدة إلى السيارة، كنت أشعر بالسعادة تغمر قلبي، إنه اطمئنان عجيب.. كأن هالة من السحر الخفي تصاحبني.. وصلت السيارة لتقفز "تاتو" من جديد وتتعلق بعنقي، وبصعوبة تمكنت من صعود السيارة بها، وأشعل "عبود" المحرك وانطلق يسير بسرعة، كانت تتعلق بعنقي بشدة تضيق علي التنفس، ودفنت وجهها في صدري ونهديها في بطني وباقي جسمها ممدد في المقعد بشكل فوضوي.. تبكي لفترة ثم صمتت، وبدأت التساؤلات ترد ذهني كأنها قطيع من الخناجر.. هل لهذا الحجر علاقة بما شاهدناه اليوم؟.. وما هي قصة هذا الحجر الذي يبدو أن مركز الأبحاث في مونتريال استخدم الأقمار الصناعية للحصول على موقعه وما هي أهميته؟ وهل له دور خطير في الحياة أو في العلوم.. وما سره؟.. ولماذا تخفي عنا "تاتو" قضيته، وتتعلل بأنها رحلة للبحث عن حجر له قيمة أثرية فقط.. ما الذي تفعله "تاتو" في وطني؟ وما معنى تلك الرخصة الممنوحة لها من طرف حكومة بلادي والتي تنص على حقها في استخدام كامل التراب الموريتاني في مهمتها البحثية؟! وهل لوصول الدكتور "جورج" علاقة ما بقضية هذا الحجر، بالرغم من أن موعد مجيئه سيكون بعد إرسال الحجر إلى مركز الأبحاث بفترة طويلة.. ولكن ما هي علاقة طبيب نفسي بهذا الحجر؟!.. لا شك أنه في مهمة أخرى!.. فهذا الطبيب النفسي لن يغامر برحلة إلى هذه الأرض لمجرد قضاء عطلته كما ادعت "تاتو"!! وهونت على نفسي،

فالقضية ليست فيما يحصل، إنما فيما يمكنني فعله تجاه ما يحصل وهو لا شيء... وانتبهت إلى أنها راحت تغط في نوم عميق.. نظرت إلى شعرها المتدلي على أكتافها والذي يضرب خياشيمي بعطره، وشعرت بنهديها المنغرسين في بطني، كما تنغرس دبوس الشكولاته في الحلق.. ونظرت إلى أردافها وسيقانها الممدة في المقعد وبدأت نقاط ضعفي في الظهور بشكل واضح.. تحركت في حواس الشهوة.. وأنا أحس نحوها بإشفاق كبير.. قلت في نفسي: نامي يا غزالتي.. فليت صدري وسادة رأسك إلى يوم يبعثون.. إهدأ أيها الجسد الغض فأنت في حضن حبك الطبيعي المكتوب.. يمكنك الاطمئنان إلى هذا البحر الذي تلقي عليه نفسك.. فهو أكثر حنوا عليك من نفسه.. لن يضيعك هذا الموج أبدا.. إنك بالنسبة إليه النسيم الذي يبعث فيه الحياة والحركة.. ما أقرب الحلم وهو بعيد.. كيف ينام حلمي على صدري ولا أشعر أنه لي، وأنه جزء مني... إنه أروع مشهد في حياتي وإن كنت تمنيت أن يتحقق بشكل آخر.. قليل من تغيير الديكور.. ويكون هو الحلم بعينه...

ومرت أربع ساعات والسيارة تعاند وتهتز يمينا وشمالا وتعلو وتهبط و"عبود" لا ينبس بكلمة واحدة، أصبح لزاما علي أن أوقظ "تاتو" لتشرب فقد خسرت كثيرا من السوائل في العرق الذي يبلل كامل جسمها تقريبا. والمختلط بعرقي أنا الآخر في لقاء تاريخي جميل قد لا يتكرر... قررت إيقاظها لتشرب.. تاتو.. تاتو.. لم تجب فقد كانت في نوم أشبه بالغيبوبة، وهززتها مرات ورفعت رأسها عن صدري لكنها لم تستيقظ، فأعدتها كما كانت، وقد بدأت الوساوس تغزوني من جديد.. ماذا لو جنت؟.. ماذا لو؟... ماذا سيقولون؟... هل سنتهم أم سيسحبونها ويأتي غيرها لإكمال المهمة كما يستبدلون أي قطعة تالفة في أي جهاز؟.. لكن هذه الشابة

الأسطورية في الذكاء والجمال لا يمكن أن تمر خسارتها دون زوبعة...
- ربما تأثرت عصبيا من مشهد هذا الجني؟.. لا تخف ففي المجرية "حجاب" من طراز رفيع، حتى أن رئيس وزراء كوريا يستعين بقواه للنجاح في الانتخابات، وتستخدمه شخصيات عالمية من بينها ممثلون وكتاب كبار وعلماء أجلاء... وقد عاد للتو من نيجيريا حيث أشرف على شفاء بنت الرئيس من مس شيطاني أصابها.. إن نتائج عمله سريعة.
- "عبود" الأمر أخطر..
- إنك لن تصدق قدرات هذا الحجاب قبل أن تجربها، والله لو دخلها مليون عفريت فإن بإمكانه طردهم خلال ثوان بطلسم واحد... إنها الساعة الثالثة، فلنصل عند تلك الشجرة..
وتوقفت السيارة، وسكت محركها عن الضجيج، أسندت رأس "تاتو" بهدوء إلى المقعد ونزلت وشرعت في الوضوء، والتحقت بـ"عبود" في ركعته الثانية، فطنت خلال جلسة السلام إلى أن باب السيارة قد انفتح، فلا شك أن "تاتو" استيقظت، وأنهيت التشهد بسرعة، لألتفت إليها وقد اتجهت إلى ظل الشجرة وجلست وهي صامتة.. أمرت "عبود" بإخراج زادنا وإعداد الطعام فيمكننا أن نستريح لأنه لم يعد يفصلنا عن المجرية إلا ساعة زمانية واحدة من السير، وأخذت "تاتو" تعب الشراب وكأنها تطفئ عطش سنوات.. وشرعنا في تناول الطعام والشاي وبدأت تتدخل في الحديث شيئا فشيئا ونحن نأكل.. لقد كانت طبيعية.. إنها فعلا طبيعية.. لم يختل فيها شيء.. كان ذلك أروع مفاجأة بالنسبة لي ولـ"عبود"..
- إن ما حدث اليوم شيء لا يصدق!!.. لم أتصور في حياتي أن أرى مثل هذا المشهد!.. إن عالمكم غريب.. دائما أقول لك إن

الشـرق غريـب، ولا يمكـن أن يفهمـه إلا سـاكنوه.. إن خرافـاتكم وخيالاتكم واقع..!!
وانتهينا من تناول الطعام لنستكمل شرب الشـاي، وسـط جـو مـريح فقد ضحكنا حتى آلمتنا بطوننا.. ضحك لا معنى لـه غيـر أنـه ربمـا يطرد من نفوسـنا مشـاهد اليـوم.. ربمـا يكـون غسـيل مـخٍّ تقـوم بـه الـنفس تلقائيـا.. كنـا حقـا سـعداء وقـد اسـتعادت "تـاتو" حيويتهـا ونشاطها، وشعرنا بأن الرحلة لم تؤثر فينا..
- لقد وصلتم اليوم بسرعة..
- يبدو أن "عبود" ضاعف السرعة لخوفه.. لقد كنـا خـائفين عليـك جـدا.. فقـد نمـت نومـا غريبـا، وبـاءت كـل محـاولاتي لإيقاظـك بالفشل... وذهبت بي التصورات إلى حدود لا تطاق.
وامتدت جلستنا إلى ما قبيل الغروب حيث انطلقنا باتجـاه المجريـة، نسير هذه المرة على مهل.. فالمدينـة قريبـة، والجـو بـدأ يميـل إلـى البرودة..
وتم استقبالنا من طرف "عياش" و"سـيداتي" و"عرفـات" اسـتقبال الأبطال، حيث نزلنا واتجهنا إلى الخيمة وبـدأنا مباشـرة فـي تنـاول الأطعمة اللذيذة التي أعدت لنا، ولم تكـن "مريامـه" تخفـي فرحتهـا بوصولنا فيبدو أنها افتقدتنا فعلا.. فيما كان الأطفال يجوبون ما بين الخيام وهم يحتضنون أرانبهم بفرح غامر.

***

تم الاستعداد لاستقبال الدكتور "جورج" وقد أخبرنا عبود بأنهم أصبحوا على بعد مسيرة ربع ساعة منا، وأن المهم بالنسبة له هو أن يكون الشاي جاهزا..
منذ شهر ونحن ننتظر وصوله، وكانت "تاتو" لا تفتأ تتحدث عن أخلاقه وطيبته.. "لا شك أنه ولد من خليط جيد من العطور، عرفته في الجامعة وقد ربطتني به صداقة قوية، وهو طبيبي النفسي الخاص.. حتى إنه يستقبلني ومديرو الشركات يقفون في طابور للدخول عليه، ليرقع لهم ما تخرم من نفسياتهم، وقد حرصت على أن آخذ معه جلسات مطولة بعد أن تم اختياري لتنفيذ المهمة، سوف ترى رجلا بذكاء أسطوري، يدخل منظره روحك مثل الأحلام السعيدة.. لقد أحدث هزة عنيفة في علم النفس، وهم الآن يعيدون ترتيب نظريات هذا العلم بناء على التجارب العلمية لهذا الدكتور الفذ..".
وتوقفت السيارة ليحجبها عنا دخان الشواء المتصاعد مثل نافورة المصانع او البراكين.. ونشاهد من خلال الدخان شبح الدكتور "جورج" وهو ينزل ويتجه لباب السيارة الخلفي ليفتحه حيث تطل طفلة لم تتجاوز سنها الرابعة عشرة من عمرها فنهب لاستقبالهم.
- من تلك الطفلة؟
- هذه "إكريك".. يمكنك أن تعتبرها بمثابة ابنته.

نتبادل التحية بحرارة أنا وجورج وتعانق "تاتو" "إكريك" ونتجه للخيمة حيث نبدأ فورا بتناول الشراب والطعام، كان جورج يتحدث عن دهشته من روعة الطبيعة ومن جمال العاصمة نواكشوط، ذلك الجمال المنبعث من الناس البدائيين في الشوارع والمطار.
أتفحص هذا الرجل بدقة فقد فاجأتني صورته، فهو قصير ممتلئ الجسم، ولا تبدو على وجهه أي تجاعيد بالرغم من وصوله مرحلة الشيخوخة، وهو يحدثك بهدوء آلي وكأن صوته منبعث من جهاز تسجيل صمم على شكل تمثال أصفر، آسيوي الملامح مما يوحي بأنه من أصول يابانية أو كورية.. كان يلتهم المشوي بسعادة، بينما كانت "إكرك" تأكل بهدوء وتمضغ قطعة اللحم لدقائق قبل أن تبتلعها، وتتوقف لثوان قبل أن تمد يدها لقطعة أخرى، خيل إلي أنني شاهدت هذه الطفلة من قبل.. بل إنني شاهدتها، وربما في بعض أفلام الأطفال، أو في البرامج التلفزيونية.. كانت شقراء جميلة جدا.. ينساب شعرها الأصفر على كتفيها مشكلا جدولا كما تنساب سبائك الذهب وهي تخرج منصهرة من الفرن الحراري.. لا شك أنني شاهدت هاتين العينين الزرقاوين الواسعتين، هذه الطفلة أعرفها بالتأكيد، إما في فيلم أو على غلاف مجلة، أو ربما رأيتها في حلم!.. هذا الجمال سبق وأن رأيته.. كانت تبدو كئيبة بالرغم من حسنها الأنثوي الطاغي الذي ينبئك بأنها تحمل من الأنوثة أكثر من متطلبات جسد طفلة في عمرها.. لم تخبرني "تاتو" بقدوم هذه الطفلة مع الدكتور "جورج"، أخبرتني فقط بأنه سيأتي لقضاء عطلة لمدة ثلاثة أشهر معنا.. كان شعورنا سعيدا كما لو أننا أفراد أسرة واحدة اجتمع شملها للتو، فأمرت "عياش" أن يسمعنا مقطعا من "مك موسى"، تعلم عياش العزف على "التيدنيت"، لكن لأنامله سحراً خاصاً فرض علينا جميعا الانتباه لعزفه، خاصة "إكريك" التي تستمع باستغراب لهذا اللحن الذي تسمعه لأول مرة في حياتها

وكأنها اكتشفت أن الموسيقا تختلف باختلاف البلدان والناس.. كانت تحدق في "التيدنيت" غير مصدقة لشكلها وهي يطلق هذه الألحان كأنها مجموعة كبيرة من الآلات، لم أتبادل مع "إكريك" غير ابتاسامات تنم عن الود والترحيب، فهي لا تعرف العربية مثل "جورج" ولذلك سيبقى الاتصال بها محدودا مثل الاتصال بين الطرشان، وقفت لأشارك "عرفات" رقصة على "مك موسى".. لم أتابعهم وهم يتفرجون علينا لأنني كنت متفاعلا مع اللحن ورحت أرقص كما لو أن روحي تذوب في طقوس صوفية صادقة، وحان وقت صلاة المغرب لأنسحب وأصلي خلف "عرفات" أنا و"عبود" و" عياش "، بينما كانت فرصة سانحة لتبادل "تاتو" أول حديث على انفراد مع ضيوفها منذ وصولهم، وفضلت أن أفسح لهم المجال فذهبت مع "عبود" إلى خيمته حيث اتكأنا على ظهرَينا متلاصقي المنكبين كأننا توأم سيامي، وبدأنا نتبادل الحديث بينما أخذت "مريامه" تعد لنا الشاي.

- من تظن هذا الدكتور الذي يصحب ابنته؟ هل هو الآخر في رحلة بحث..؟!

- كما فهمت ليست ابنته ربما كانت قريبته.. ابنة خاله مثلا جاء يصحبها في رحلة للتنزه والسياحة.

- ولكنها كئيبة جدا، وكأنها مريضة.. لقد خيل إلي أنني أعرفها.. هل رأيت صورتها بين الصور التي كانت تفرجنا عليها "تاتو"؟.. أنا أتوقع أن يصل المزيد من هؤلاء القوم، نحن نستفيد منهم على أية حال، وهم طبعا أكثر استفادة.. هل عرفت شيئا عن الحجر؟

قرصته في الرقبة تنبيها لوجود مريامه معنا، وافتعلت الضحك.

- إنه فعلا دكتور يشبه الحجر..

- غدا ستذهب إلى نواكشوط لشراء لائحة مستلزمات ويجب أن تعود بسرعة لأننا بحاجة إليك.

وقفزنا واقفين في لحظة واحدة، وتدافعنا فزِعَين كأننا في سباق، فقد تعالى البكاء من الخيمة، دخلنا مندهشين لنجد "تاتو" قلقة مضطربة، و"جورج" يبتسم بهدوء ويهيئ حقنة لـ "إكريك" التي كانت تبكي بعصبية زائدة وتمسح بيديها على وجهها بشدة كأنها متوضئ يدلك وجهه.. سحب الإبرة من ذراعها، وانسحب إلى الوراء ليجلس على المقعد المقابل لها، وأشار لنا بالجلوس، فخرجت "تاتو" من الخيمة لتقف في الظلام لدقائق ثم تعود إلينا وتجلس حزينة وهي تدخن، غمزتني بعينها فأشرت لـ "عبود" بإحضار العشاء، وأخذنا نأكل بلا شهية صامتين نتحاشى نظر بعضنا إلى بعض، فيما كانت "إكريك" تجول ببصرها بين وجوهنا مستطلعة ردة فعلنا على ما رأينا.

- غدا سترى "الحسينية" يا دكتور.

- أخبرتني "تاتو" عن تلك الواحة، لكننا سنستريح غدا هنا لنذهب إليها بعد غد.

- إنها أقرب مما تتصور.

- أعرف.

وركز نظره في عيني مبتسما، كأنه يقول لي أن لا داعي للنقاش، فأقبلت على الأكل دون أن أنبس بكلمة واحدة، وكنت أستعجل الوقت ليذهب جورج وطفلته إلى الخيمة المعدة لإقامتهما، فقد أحسست أن الجو مكهرب، وأن الكلمة العابرة قد تثير زوبعة غير محمودة العواقب، تنبئني بذلك وجوه الحضور.. إن الوجوه هي أصدق المرايا، ولم أكن مخطئا تماما عندما كنت أفكر في الثانوية بأن أصنع يوما ما حاسوبا من البروتين، إن الفكرة بسيطة التطبيق، فالجسم البشري المؤلف أساسا من البروتين عبارة عن حاسوب من النوع الجيد.. وكانت أفكاري الطفولية في هذا المجال تحاول وضع الحلول لمشاكل الطاقة المحولة التي سيعمل بها هذا الحاسوب،

نظرا لخصائص البروتين، ولكن لا شك أن ذاكرته وقوة معالجته ستكون أفضل بملايين المرات من الحواسيب المصنوعة من المواد الأخرى.. واليوم ها هي محطات الأخبار تبث تجربة ذلك الشاب الكيني في تنفيذ هذه الفكرة، وإبداع أول حاسوب مصنوع من رقائق البروتين، ولا أعرف إن كان مشروعي العلمي الذي أنوي تنفيذه سيتحطم هو الآخر على صخرة العجز أم على نصب سبق آخر، فقد يسبقني إليه واحد من مليارات الأشخاص الذين يشغلون ماكيناتهم العصبية بحثا عن إبداع جديد.

صحبت "تاتو" ضيفيها إلى الخيمة الصغيرة التي أعدت لإقامتهما، وبعد إشعال الضوء فيها بدقائق عادت إلي وجلست وهي حزينة.. أخرجت أصبع سيجارة من علبتها، وأشعلت فيه النار وامتصته بقوة مطلقة أعمدة مستقيمة من الدخان وهي تطرق برأسها إلى الأسفل كأن كآبة العالم قد احتلت رأسها.. إنها تنتظر مني استفسارات، فلماذا لا أستفسر منها وأريحها من بعض عناء الكتمان؟!!

- لم تخبريني عن الطفلة؟.. " تاتو" نحن أقرب إلى بعضنا بعضاً من أن نعيش في الألغاز، لقد كتمت عني قصة الحجر، وها هو قد سافر إلى اللاعودة كما أعتقد، فهل لي أن أعرف ما يجري من حولي؟

ابتسمت بحزن عميق وقالت:

- أعرف أنك تتساءل عما يجري.. والحقيقة أنه لا بد من إخبارك.. إن "إكريك" طفلة مستنسخة، نعم طفلة مستنسخة.. وقد استنسخها رجل أعمال عبر مكتب لتبييض الأشخاص، رجل الأعمال هذا أعجب بالممثلة العالمية "كازياس"، وعندما رفضته استخدم الحيلة للحصول منها على خلية تم استنساخها لتصبح "إكريك".. وقد دخل في صفقة مع الدكتور جورج لعلاجها، فهي مريضة بالكآبة لدرجة

غريبة ومستعصية حتى على أمثال جورج، لذلك قرر السفر بها إلى مكان هادئ لدراسة حالتها ومعالجتها.. إن "مافيا" الاستنساخ تثير متاعب العالم، وبالرغم من كل الميزانيات المرصودة لمكافحة هذه الآفة فإن المجرمين يتمكنون من حين لآخر من الإفلات من أجهزة الأمن.. إنها يا عزيزي مأساة.. ما ذنب هذه الطفلة ولماذا نصر نحن البشر على تدمير بعضنا بعضاً بهذه الطريقة الوحشية إلى حد الجنون..؟! لقد صدموا في السابق بقضية الشِّفرة الوراثية ومخاطر استخدامها، وهي فعلا تؤثر الآن في معطيات الحياة العامة، فالشركات تفرض الحصول مسبقا على الشيفرة الوراثية لعمالها مثل شهاداتهم قبل توظيفهم.. لكن الأمر مختلف.. أنت تعرف مصير الدولة التي استخدمت الاستنساخ لتقوية جيوشها، وتعرف أيضا مصير تلك الأقلية العرقية التي استخدمت الاستنساخ لتكثير عددها في العالم، لقد كانت كارثة حقيقية.. ومع ذلك لا يتوقف هؤلاء عن أحلامهم أو عن جنونهم على الأصح.. هذا رجل أعمال أنفق الملايين ليحصل على نسخة من امرأة أحبها ويريد مجرد التمتع الجنسي بها.. تصور هذا الأمر.!! كان بإمكانه أن يصنع دمية لها ويتلهى ما شاء.. وكان يمكنه أن يستخدم التكنلوجيا لإدخال نوع من الحياة لتلك الدمية البلاستيكية التي سيصنعونها لينة ومثيرة كأنها جسد حقيقي لـ "كازياس".. لكنه يريد دمية آدمية.. إن غريزته هي المتحكمة، وأمواله هي المتنفذة.. لقد رفض الدكتور جورج في البداية الدخول في هذه الصفقة اللاأخلاقية.. لكنه قرر تمريرها لكي يكتشف علاج هذا النوع من الحالات.. يسميها الكآبة المستديمة.. إنك تلاحظ إشفاقي عليها.. أشعر أنني - بطريقةٍ ما - شريكةٌ في هذه المؤامرة..
كانت "تاتو" تحس بالألم الناتج عن خطايا الآخرين.. خطايا لم ترتكبها.. وأعتقد أن هذه من أنبل صفة تتوفر في الإنسان، وهي أن

يشعر بأنه مسؤول عن خطايا غيره.. وقررت أن لا أثير موضوع الحجر، لأنه ربما يثير عاصفة أخرى لم تكن متوقعة.. ربما يكون خلفه سر أقسى من سر "إكريك".. وربما يكون جزءا من حزن "تاتو" - هذه المرأة القوية - قد انسحب إليها من متعلقات ذلك الحجر.. الأفضل الآن أن أدعي النعاس، وما أبعده مني!!.. كيف أنام هذه الليلة.. وأنا أشعر برائحة مجزرة أخلاقية تهب علي من الخيمة المجاورة؟!!

- تعال نتمشى قليلا في الظلام..

وأسلمنا جسدينا للنسمات الباردة في الظلام الدامس ونحن نتمشى باتجاه سفح الجبل بخطوات وئيدة.. صامتين كأننا تماثيل أشباه.. وجلسنا على صخرة تبينا شبحها بصعوبة.. ألقيت نظرة إلى أعلى الجبل فبدا بصيص النور من خيامنا وكأنها اختلطت بمشهد النجوم في السماء البعيدة... لقد مضى وقت طويل دون أن نتبادل كلمة واحدة... وشعرت بأن الجو يزداد بردا.. وأن النسيم أصبح يأتي على شكل موجات قوية متتالية..

- "تاتو"... أنتِ لا يحزنك إلا التفكير بعشقي أنا فوفري عليك الوقت.. إنني مستعد للشفقة عليك..

وأطلقت قهقهتها تشق الجو كأنها أنغام جوقة موسيقية.. هذه الضحكة أعادت إليها غنجها ودلالها.. شعرت بأنها استعادت أنوثتها من مخالب العقل..

- لست طبعا طبيبا نفسيا.. أنت شاعر.. تكتب الشعر بالفيزياء..

- فعلا لن أكون مثل جورج طبيبا عبقريا، ولا مثل "رايت" يوسفا آخر..

- آه.. ذكرتني "برايت".. لكم أنا مشتاقة إليه!؟.. أخبرني أمس بالهاتف أنه لا زال يحتفظ بمنديلي الذي وجده في الحمام..

وتأسفت على تغيير مجرى الحديث.. "رايت" هذا لا أطيقه.. إنني أكرهه.. أشعر بأنه يغتصب مني حقوقي.. لولا المبادئ لاغتصبتها هنا وهي لا تستطيع أن تقاومني ولأحرقت هذه المحطة اللعينة فأصبح كأي مجرم آخر... إرهابي مثلا.. سفاح.. شارب دم.. سوف يعلقونني مثل البالون في حبل المشنقة.. لكن بعد أن أبلغ مأربي.. ولكن من هي حتى أفعل ذلك؟!. من هي المرأة؟! ألسنا في النهاية نستلقي على ظهورنا غير آبهين بعد لثوان قبل أن نبتعد ؟!....

- "تاتو" عزيزتي.. لقد شعرت بالنعاس.. فلنذهب إلى خيمتنا؟

- تفضل.. أعطني يدك لأنني لا أرى جيدا في هذا الظلام..

- رغم أن عينيك واسعتان!!...

- قل ما شاء الله..! ألا تؤمنون بالعين؟!...

***

أشرقت الشمس ساطعة حارة كعادتها، واجتمعنا على مائدة الإفطار عند الساعة التاسعة صباحا، ومر الوقت بسرعة بين النقاشات والتفرج على المحطات الفضائية والمواقع الشبكية وتناول الوجبات المختلفة التي تفنن فيها العمال برئاسة "مريامه".. وكأن الليل جاء هذا اليوم في غمضة عين، كان الجميع سعداء ما عدا "إكريك" فقد ظلت كئيبة وأكلت كثيرا من الطعام، وإن كانت منشغلة شيئا ما بمتابعة شكل وعادات القوم الجدد عليها...
وعند الساعة الحادية عشرة ليلا ومع مغادرة جورج و"إكريك" إلى خيمتهما، نبهني جهاز الكمبيوتر إلى وصول رسالة بالانترنيت، فتحتها لأطلع عليها، وأجد مفاجأة جميلة فالمعلومات التي أرسلتها إلى المخبر أظهرت توقعاتي مائة بالمائة تقريبا، وعلي الآن الاستعداد لإجراء المزيد من التجارب، وهو ما سيشغلني بعض الوقت عن هؤلاء الضيوف بالرغم من أن كل شيء مجهز لهم.
- "تاتو".. غدا سأبدأ بإعادة تجاربي من جديد مع إضافات طبعا لأن المخبر أعطاني النتيجة والبحوث مشجعة للغاية، لم يبق لي إلا أن أضع اللمسات الأخيرة على رسالتي.. علي إتمامها خلال شهر وذلك سيتطلب مني المزيد من التفرغ والجهود لكي أتخلص من هذا العبء الثقيل ولأغلق أفواه أساتذتي ومصانعهم بما يطلبون.

- هنيئا لك.. إنه عمل عظيم، وإن كنت لا أفهم تماما أبعاده إلا أنني أعرف أن بحثك في مجال الموت المبرمج للخلايا في النباتات الجبلية، وأعرف أنهم يريدون نتائج البحث ليستفيدوا منها في ميدان الصناعات الدوائية المستخدمة في المزارع.
وتوقفت لحظة وقالت بلغة صارمة وهي شبه غاضبة:
- لكنك لن تغادر.. سترسل إليهم البحث وستبقى معي إلى أن تنتهي مهمتي، من حقك الحصول على وظيفة وتكوين عائلة.. الوظيفة بيد أمثالك في أي وقت أما المال فمركز الأبحاث متعهد بمنحك فوق ما تتصور وهذا شرطي عليهم وسوف تصلك ضمانة باسم المركز خلال الأسبوع القادم بموجبها يمكنك البدء في صرف مستحقاتك.
- لقد ذهبت بعيدا.. فأنا لا أفكر في الرحيل بمجرد اكتمال البحث.. لقد دخلت معك في عقد عمل أقرب إلى المعاهدة الأخلاقية منه إلى الوظيفة، أو إلى دور دليل.. وأعتقد أنك تفهمين ذلك.. كان بإمكاني إنهاء البحث في أسابيع والرحيل.. أنت بالنسبة لي...
واغرورقت عيناي بالدموع لأن "تاتو" هي الأخرى أخذت تبكي في صمت.. تسيل الدموع على خديها كأنها خيوط الحرير... شعر كلانا في هذه اللحظة الجهنمية بالآخر مثلما لم يشعر به من قبل..
- نحن توأم..هناك توأمة روحية بيني وبينك... حتى لو أنهيت مهمتي فلا أعرف كيف سأغادر وأتركك.. إنك أصبحت كوالدي أو كأمي أو كجزء مني.. هذا الرباط لن ينقطع.. إن شئت وفرت لك العمل في كندا لنعيش جيرانا متحابين.. بل إخوة متلاصقين..
وهرولت إلى مخدعها في الخيمة وأسدلت الستار من دونها، وكأنها تهرب من نفسها... فرفعت صوتي قائلا:
- لن يقبل "رايت" حسن الجوار..
وسمعتها تضحك وهي تغمغم.. ثم ما لبثت أن سمعت شخيرها فعرفت أن النوم أخذها وطار.. إن علاقتنا فعلا أصبحت معقدة

جدا، ولا يمكن فهمها بسهولة.. لقد وافق شن طبقة.. لكن طبقة تريد عقل شن إلى ما لا نهاية ولا تريد جسمه.. وشن هذا الذي يستخدم الفيزياء في كتابة الشعر لا يمكنه العيش إلا بجسم وعقل طبقة.. وإلا فلكل حادث حديث.. ولا بد أن تنتهي هذه اللحظات العابرة لعاطفة الأخوة والإنسانية والإعجاب.. وعندها سنكتشف أن كلينا كان يكذب بدافع تبادل الحاجات المؤقتة...

وضعت رأسي على الوسادة طلبا للنوم، فأنا من أكبر المتسولين على بابه، وكثيرا ما يردني، غريب بخله على البعض وسخاؤه الحاتمي على البعض الآخر.. غير أن الكمبيوتر أصدر رنينه بوصول رسالة جديدة، فقمت بفتحه لأجدها رسالة من عمي يعلمني فيها بوصوله غدا عند الساعة الرابعة مساء ليطلع على أحوالي.. كان ذلك بمثابة هموم جديدة تنضاف لهموم ضيوفي لكنني كنت دائما أشعر بجحيم اليتم.. عمي أحبه جدا فهو بمثابة والدي وقد رباني منذ كنت يتيما وظل يفضلني على أولاده ويبالغ في حنانه.. لقد رباني في دوحة من الحب والحنان، حتى إنه لم ينهرني يوما واحدا بل كان يباهي أقرانه وزواره بتفوقي بين التلاميذ، وكان يضرب أبناءه حين يتضايقون من تدليله لي.. كنت ابنه وكان أبناؤه كضيوفه.. وبدأت أستعد ذهنيا لاستضافته فلا بد أن أحضر الجو لإقامته، لا بد أن ألقن الجميع هنا أنني كنت أبيت مع العمال في خيمتهم، فلن يتقبل فكرة نومي مع "تاتو"، وأنها شخص عابر في علاقتي العملية فقط، ولا بد أن يفهم أنني منشغل بإتمام بحثي.. وهذا فعلا ما أوهمناه في أول جلسة له بيننا، لقد بدا سعيدا فهو شخصية دبلوماسية مهذب وبشوش، وقد أقبل على الحديث مع الجميع وكأنه يعرفهم منذ زمن طويل.. وكانت أحرج ساعة في حياتي ساعة اختلائه بي لأول مرة بعد منتصف الليل، حيث بدا مرتبكا وهو يريد أن يدخل جو المهمة الخاصة التي جاء من أجلها:

- بني لا تتصور كم أشتاق إليك.. فحرام عليك أن تطيل الغيبة عني..
- سينتهي البحث بعد سنة تقريبا، وقبل ذلك سأزورك مرات لأنني مشتاق لإخوتي وأمي، فقط البحث في البداية يفرض المواصلة لعدة شهور.
- لم ترد على الكثير من رسائلي وكان هاتفك مغلقا طول الوقت.. و.. وقد أساءني فعلا أن تسكن مع نصرانية في بيتي الخاص.. لكنني فهمت الليلة أنك تكسب كثيرا من الأموال منها.. ولذلك فهذا جيد.. هؤلاء النصارى - يا بني - أعداء، ويجب الحذر منهم ومن الوقوع في حبائلهم الخبيثة.. تعرف أنني ضابط استخبارات وأعرف ما يفعلون وماذا يخططون له.. قد تغريك للعمل في بلادها وربما الارتباط بها ليس من أجل شخصك بل من أجل مستقبل أمتها.. إنهم خبثاء.. تذكر تلك المقولة التي طبعت فلسفة التعامل الاجتماعي بيننا وبينهم.. تذكر.. "أغمضي عينيك وفكري في بريطانيا".. تلك المقولة التي قالها يوما حاكم عسكري لزوجته عندما أراد منها أن تلبي رغبة حاكم عربي لإقليم من بلادنا.. هؤلاء الخبثاء .. حطب جهنم.. سوف نلقنهم درسا لن ينسوه.. لقد أفسدوا الحياة البشرية.. وإنهم يبنون سعادتهم على جثث ملايين الضحايا عبر هذه العصور..
- عمي لا تخف علي.. فأنا أحمل من كرههم ما لا يحملون من حب مصالحهم..
ابتسم وهو يريد أن أعطيه دليلا على صحة ما أقول:
- أنا أثق فيك لأنك لم تكذب علي في حياتك.. ولا تنس أنك أمل من آمال الأمة.. وأمل من آمال أسرتك الصغيرة.. لا تنس ذلك.. لقد رفضت طلب جماعة المقاومة بانضمامك إليهم، لأنك ستفيد الأمة بعلمك أكثر مما ستفيدها بسيفك.

- سأحقق أحلامك.. النية لنا والقضاء لله... من لي غيرك في هذه الحياة؟!.. من لي غير أخوتي.. وأمي؟!.. سأزوركم بعد شهرين مباشرة بعد انتهاء الجزء الأول من البحث.
- جيد سأقيل معكم غدا وأسافر.. سأنتظرك..
قالها بلهجة المشكك.. فضابط الاستخبارات هذا لا يمكن أن تخفي عليه كل الأشياء.. فهو قد لاحظ بلا شك اضطرابي وتلعثمي في الأجوبة، ولاحظ تلك النظرة التي تلتهمني بها "تاتو" دائما وكأنها تموت من حبي وليت عمي يعرف الحقيقة بأنها رفضتني من أول لقاء... ورمى جسده على السرير وبدأ في قراءة الأدعية والأذكار..
- لا بد أن تمضي معي أياما، فأنا ما زلت مشتاقا لك!
قلتها بلهجة صادقة.. فضحك ومضى حتى انتهى من قراءة أحد الأدعية وقال:
- بني إن إقامتي مع هؤلاء النصارى تزري بمروءتي.. وقد تبعث الشك في الجماعة.. أنت تعرف كم عانيت من أجل أن يقبلوني.. أو من أجل أن لا يعتبروني عميلا مزدوجا.
كورت جسمي في حضنه فامتلأ أنفي برائحته المميزة.. تلك الرائحة التي ما زلت أذكرها منذ صباي، وضمني إليه في حنو وأخذ النعاس يزحف إلى عيني بسرعة، ربما بتأثير هذا الدفء العائلي، أو ربما بتأثير الارتباط الجذري بيني وبينه، وأيقظني في الفجر بهدوء كأنه يهدهدني بيده، فتحت عيني لتمتلئا بشبحه وأنا أحس بسعادة وبأن نومي كان عميقا.. كانت جلبة العمال في الصباح قد بدأت تعلو مع خيوط الفجر الأولى، صوت الأذان للصلاة فوق الجبل ومن مئذنة مسجد المجرية، وصوت إعداد وجبة الفطور، ومن الجانب الشمالي للجبل كان يتناهى إلينا صوت غناء الدكتور جورج بأغنية إنجليزية للمطرب "سيفار"، تناولت الفطور مع عمي في خيمة العمال التي احتللناها ليلة البارحة

ودخلت علينا "تاتو" من تحت طنب الخيمة وهي مبتسمة كأنها الشمس التي تطلع من حاجب الظلام.

- صباح الخير.. كيف حالك يا "سداتي"؟
- بخير.. بخير.. وأنت؟
- أنا بخير.. لعلك لمست نقاوة الجو في هذا المكان، وكيف أنه مختلف عن القرى والمدن؟..
- طبعا.. طبعا.. الجو هنا يا ابنتي طازج إن صح هذا التعبير.. إن عمر يحسن التعابير الشعرية أفضل مني.

وابتسم.. وسكت، كان ذلك أول اختبار ماكر في هذا الصباح، ولا شك أن "تاتو" ستسقط قريبا أمام هذا المحقق البوليسي، بالرغم من الدروس التي لقنتها لها قبل مجيئه..

- قلت له مرة إنه يكتب الشعر بالفيزياء.. لكنه لم يعترف..

وبدأ الإحراج يزحف إلي، وخفت أن تواصل "تاتو" الحديث على سجيتها، فهي أحيانا تشبه الطفلة الساذجة، لكنها استعادت مكرها بسرعة وقالت:

- إذا انتهى بحث عمر، فمن تراه يصلح للعمل معي بديلا عنه؟

ابتسم "سداتي" كأن سؤالها وفر عليه بعض معاناة التحقيق وقال:

- كثيرون.. أي شخص.. المهم أن يكون مهذبا وملتزما لأنني أعتقد أن عملك يتطلب ذلك بالرغم من أنني لا أعرف عنه شيئا.. إلا أن منظر هذه المحطة يوحي بأنه مهم.. على كل حال لدي البديل، فأخوه أحمد جاهز ليحل محله.

- سنبقى طبعا على اتصال وسأستعين بك في هذه المهمة، إنكم تقيمون في بلدة "فاوه" فهل تشبه الحياة البرية هناك الحياة البرية هنا؟

- لا أعتقد أنك جئت لدراسة الحياة البرية.. أم أنت تهتمين بالسياحة؟

بدأت عقلية الثعلب البوليسي تعود من جديد، لكن "تاتو" يبدو أنها انتبهت لدخولها منطقة التحقيقات البوليسية، ومن الظريف حقا التفرج على الحوار بين هذين العقلين الجبارين وإن كان يبقى احتمال الخطر قائما، هل سيتمكن هذا العجوز الماكر بخبرته الاستخباراتية، وبتجربته الزمنية من استخدامها كما يستخدم أي عميل لا يعلم، أم ستتمكن هذه العبقرية النسائية الفذة من العودة لنعومة الأفعى لتلدغه من حيث لا يشعر؟!..

- ليس كثيرا.. إنما أحب الحيوانات، وقد جلبت من رحلة ترفيهية أرانب صغيرة لأطفال "عبود".. وأفكر في أن أصحب معي بعض الحيوانات البرية الموريتانية إلى كندا خلال رحلة عودتي لأربيها هناك ولتبقى ذاكرتي جميلة لهذا البلد الطيب..

- أين قمت بتلك الرحلات؟

- لا .. إنها قريبة على بعد كيلومترات من هنا إلى الشرق.. لا أبتعد كثيرا لئلا أضل الطريق، لأنني كالعادة أذهب وحدي بالسيارة.

- أليس لديك جهاز قياس المسافات؟

- لكنك تعرف جبن النساء.. المرأة تبقى امرأة..

وصمتت وهي تستعد للوقوف، فقد أحست بأن الاستمرار في هذا الحديث يشبه الاستمرار في ركوب أمواج السيل، وقد لا تحمد عقباه..

- سأعود للخيمة فقد يكون الدكتور "جورج" وابنته ينتظرانني هناك...

وانسابت من تحت الخيمة خارجة، كما تخرج الجوهرة من الكيس الأزرق... فاقترحت على عمي جولة في المكان، فربما استعاد بعض ذكرياته من الزيارات السابقة لهذا الجبل، لكنه فضل النزول للقرية فلديه أصدقاء يود زيارتهم.. وأصر على الذهاب وحده،

فرافقته حتى سفح الجبل وقفلت عائدا إلى الخيمة حيث كان الجميع يتابع فيلما جديدا عن الحرب الأهلية الأميركية الثانية..

***

بعد شهر من رحيل عمي، تمكنت من الانتهاء من إعداد الشكل النهائي للبحث، وأرسلته بالانترنيت إلى الجامعة التي كان قسم البحوث بها ينتظره على أحر من الشوق، وتنفست الصعداء، فقد أصبح لدي الوقت أكثر لملازمة ضيوفي أو على الأصح مستخدميَّ، وفكرت في أن أُكثِر من الاختلاط بسكان المجرية، لتبديل الجو، وللعثور على لقاءات مع بعض الفتيات، لأداوي نفسي بالتي كانت هي الداء.. لقد كان زملائي في الجامعة يقولون إنني شهواني إلى حد الجنون، وإن جسمي لا يتزن إلا بالاستناد إلى أي مجوف كسي بملابس نسائية... يقولون ذلك وقد أصبحنا في عصر صارت فيه الثياب هي المميز الوحيد بين المرأة والرجل.. واليوم يبدو الجو ملائما للنزول إلى المجرية والتجول في شوارعها وأزقتها، وربما حظيت بلقاء ينسيني عناء اللقاء.. ذلك أن "تاتو" ستنشغل كما أخبرتني البارحة في العمل بالمحطة، و"عبود" في سفر إلى انواكشوط لإحضار بعض إرساليات مركز الأبحاث بكندا، وسأترك المجال لـ"جورج" ومريضته..
- أزتْ.. أزتْ.. التفتُّ باتجاه الدكتور "جورج" الذي كان يصفر بشفتيه للفت انتباهي، وهو يقف خارج خيمته، فاتجهت إليه.
- أريدك أن تخرج مع "إكريك" لتفسّحها في الحسينية.
وأمسك بيدي وضغط عليها بشدة وقال بجدية لا تقبل الاستفسار:
-لا ترفض لها طلبا.. سمعت؟؟.

- كيف؟!.. إنها لن تطلب مني أن أخرق السماء ولا أن أبلغ الجبال طولا.
وزرع نظره بحدة وهو يقرب عينيه من عيني حتى اختلطت رؤيتنا، ولم أعد أميز شيئا.. وقال:
- طلب شخصي؛ لا ترفض لها طلبا!.. وتذكر أنك لا تعرف اللغة فنفذ ما تريده منك..
ونادى على "إكريك" لتخرج بمشيتها المتثاقلة، هي طبعا نسخة طبق الأصل من الممثلة "كازياس"، كانت تحاول الابتسام بارتباك شديد، وضعت يدها الصغيرة بيدي وأخذنا نتمشى متجاوزين الصخور بهدوء، أمسكت يدها بقوة لئلا تنزلق وتنكسر هذه الزجاجة الرقيقة.. هي فعلا زجاجة فعطبها لا يشفى.. هكذا نظن جميعا.. لم تكن ملامحي تخفي عاصفة الاستغراب من حديث جورج وكلامه: "لا ترفض لها طلبا"..!!.. ما معنى هذا؟.. هل عرضت عليه مطالب ستوجهها لي؟.. وماذا يمكن أن تطلب مني؟!.. ودخلنا واحة الحسينية لتمتص فجأة حرارة الجو من جسمينا، فجذبتني إلى صخرة مسطحة كبيرة وجلسنا نحدق في المياه المتدفقة من تلك العيون الأبدية التي لم تسلم حواجبها، هي الأخرى، من اللون الأخضر الناتج عن نمو الطحالب من تدفق المياه.. ثم وقفت وركضت باتجاه نخلة كبيرة وجلست ميممة جذعها وهي ترسم طائراً خرافيّاً بحجر صغير على جذع النخلة. والتفتت إلي وهي تبتسم، فرددت عليها بابتسامة بلهاء تجاوبا معها في فضولها.. وأشارت إلي بالحضور إليها، فجئت وجلست أتمعن في رسم الطائر الذي لم تكمل رسم مؤخرته فيما قامت لتقف عند ظهري، وأطلت النظر إلى الطائر لأوحي إليها بأهمية رسمها، ثم أحسست بيدها على كتفي وسمعت صوت أنفاسها وهي تعلو، فالتفت نحوها لأجدها عارية تماما وهي تبتسم وعيونها تشع

بالشهوة، مررت بصري على جسدها ملتقطا بسرعة تفاصيله الجميلة، النهدان الصغيران والبطن وهو يحمل آثار جروح بسيطة بيضاء اللون.. و.. أصابني الفزع الشديد فالصبية قد جنت ولا شك، لقد جنت، فماذا سأفعل؟ هل ألبسها ثيابها عنوة وأعود بها فورا.. أم .. لا.؟!!. وأخرجت الهاتف من جيبي لأتصل بالدكتور "جورج"، لكنها أخذت تفتح أزرار بنطالي، فمددت يدي لأنتزع يدها فيما أحاول الاتصال بـ"جورج"، لكنها جذبت مني الهاتف ورمت به نحو إحدى الصخور ليتحطم، كنت في موقع لا أحسد عليه.. وتذكرت وصية "جورج".. ها.. إذن هذا ما اتفقا عليه.. يريد مني أن أصبح عقارا جديدا في قائمة أدويتها، وبدأت أستعيد شيئا من هدوئي.. بل يمكن القول إن جسم الصبية العاري الجميل بدأ يخدر حواس المنطق في دماغي.. لكن هذا جنون.. كيف أغتصب هذه الفتاة المريضة؟!.. وما هي تبعات ذلك؟ وماذا سيكون الموقف أمام "تاتو"!؟.. وهل يعقل أن الدكتور "جورج" يريد ذلك؟؟.. ربما أتفق معها على ممارسات أخف.. لا بد أن أتصرف بحكمة، تملصت بصعوبة من يديها، وبدأت أخطو بسرعة مبتعدا، ثم توقفت وأشرت لها بأن تلبس ملابسها وتأتي معي.. فجلست وأخذت تبكي بصوت عال.. وفجأة يطل علينا الدكتور "جورج" وهو يبتسم ابتسامته المعهودة في مثل هذه المواقف، فسارعت "إكريك" لوضع ثيابها على نهديها وحضنها.

- ظهر لي رقم هاتفك، فعرفت أنك غبي.. لقد فهمت ما حدث.. "عمر".. بصراحة كنت أود أن تجري الأمور دون أن أضطر للشرح.. هي طفلة.. لكن من حقها أن تتمتع ما دامت تلك هي رغبتها، وربما ذلك جزء من شفائها.. وإذا تمسكت بعروة العفة هذه، فسألجأ إلى أي كان.. إنما ذلك أكثر سترا لنا.. وهي أيضا تحبك.. وأسرع قافلا وهو يتركنا نغلي على نار الموقف... افترست

بنظري الصخور والحجارة الصغيرة المتناثرة أمام عيني، ورفعت بصري إليها، لأرى ظهرها العاري منحنياً، وهي تدفن رأسها في حجرها.. ذهبت لألتقط شظايا الهاتف، وجلست على صخرة كبيرة عند جذع النخلة أنظر إلى رسم الطائر الذي لم يكتمل رسمه، سمعت خطواتها وهي قادمة إلي، جلست بجانبي ومسحت الدموع عن عينيها الواسعتين وهما تستعيدان بريق الشهوة، أخذت بيدي وجذبتها وهي تمد ظهرها على الصخرة الملساء.. كان جسمها يرتجف وهي تبتسم وقد أحكمت قبضتها فوق ظهري.. أحسست بالدم الساخن وهو يلامسني... كانت تشدني بعنف وهي تشخر من اللذة، وشعرت بالتخلص من كل الحواجز فأخذت أعزف بجسدي على قيثارة هذا الجسد الجميل.. هذا الغصن الغض الطري.. كانت تدعوني لأكرر العزف كلما وصلت لنهايته، وبعد أربع ساعات شعرت بأن قواي قد خارت، وأن جسمي أصبح أخف مما كان.. وبصعوبة أقنعتها بأن نعود لنتغدى أو لنستريح، فقامت بارتداء ثيابها وقد بدت عليها راحة غريبة، وبدأت ملامح الحزن تختفي من وجهها، واقتربنا من قمة الجبل لتظهر "تاتو" وهي واقفة عند باب الخيمة تنظر إلينا.. واشتعلت شرارة الهواجس في رأسي من جديد.. ترى هل تعلم "تاتو" بالأمر هي الأخرى؟ وهل رتبته مع "جورج"؟.. وإذا لم تكن تعلم فهل ستفهم الأمر على الأقل من مشية "إكريك".. أو من مظهرها الجديد.. والأنثى تفهم الأنثى كما يقولون...؟ ما هي تصورات "تاتو" عندما تعلم أنني أقبل هذا النوع من الأمور؟؟. وأن شهوتي تجرفني إلى حد الدخول في القمامات اللاسلوكية؟... عندما أصبح عقارا من عقاقير الدكتور "جورج"؟.. وإذا لم تعلم اليوم، فماذا عن الأيام الأخرى؟.. إن الأمر لا بد أن يتكرر... فقد دخلت من باب جحا، والخروج بثمن.. وأي ثمن!!..

صافحتنا "تاتو" مبتسمة ببراءة مطمئنة حقا لقلبي الذي ينبض بشدة، ودخلنا الخيمة لنجد الغداء قد وضع على المائدة، فمدت "إكريك" يدها وأخذت تتناول الطعام بشهية واضحة وهي تبتسم بارتياح وتوزع نظراتها على الحضور كأنها تزف إليهم البشرى.. لم أتمكن من الأكل بشكل طبيعي، فقمت لأغسل يدي وسط استغراب الجميع، واتجهت إلى السرير وارتميت عليه منبطحا وقد بدأ الصداع يشق رأسي، فاقتربت مني "تاتو" ووضعت يدها على كتفي بهدوء:

- مالك يا عزيزي.. إنك لم تتغد؟...

- أحس بصداع شديد.. ولا رغبة لي بالأكل.

- هل أعطيك مهدئ الأوجاع؟ أم أبعث للطبيب؟

- لا.. أريد أن أنام.

- وفعلا نمت.. نمت حتى الغروب.. لأستيقظ على "تاتو"، وهي تجلس بجانبي في صمت.

- "وني".. هل استرحت.. كيف وضع الصداع؟..

- لا.. لا بأس.. أشعر بالارتياح.. الحمد لله.. وكيف حالك أنت؟

- أنا بخير ما دمت أنت بخير.. لقد كنت قلقة حقا..

- وأين الجماعة؟

- لقد ذهبوا للقرية لتشتري "إكريك" بعض المستلزمات.. إنها اليوم غريبة.. ألم تلاحظ أنها مسرورة؟.. عجيب أمرها!!.. إنه أول يوم أراها فيه مسرورة.. لا شك أن الدكتور قد بدأ ينجح في علاجها.. ماذا ستأكل؟

وكانت تدلك قدمي وساقي بيدها الناعمة.

- أي شيء.. إني جائع حقا.

وخرجت "تاتو" وقد تبددت عاصفة شكوكي، علي الآن ابتكار خطة محكمة للوضع الجديد.. وما كادت تعود وهي تحمل صينية

الطعام حتى خطف البرق خطفات متتالية، ثم لم نلبث أن سمعنا صوت الرعد.
- إن هناك غيوما وربما ينزل المطر..
قالتها "تاتو" وهي تناولني الطعام وبين الحين والآخر ترمي بقطعة منه في فمها..
- لا شك أنهم سيبيتون هناك إذا استمر المطر على هذا المنوال..
- لا .. سأذهب لإحضارهم.
وسمعنا صوت أزيز مثل أزيز النحل وهو يقترب، وبدأت البروق تشق السماء يمينا وشمالا والرعود تخض سكون الكون حتى لم يعد بعضنا يسمع بعضاً، وبدأت الخيمة تهتز مع هبوب الرياح الباردة الشديدة السرعة، وسمعنا صوت "مريامه" وهي تصرخ على أطفالها، وجاء "سداتي" مهرولا ودخل الخيمة وقد ابتلت ثيابه وهو يلهث.. كان صوت نزول المطر ينبئ عن كثافته فيما تستمر البروق في استعراضاتها الضوئية الجميلة والرعود تعزف أغاني الخلود الرائعة، واجتاحتنا موجة عارمة من البرد الشديد لساعة قبل أن يتحول المطر إلى طل خفيف متواصل، وكنا نفكر بشأن الدكتور "جورج" و"إكريك" وباقي الجماعة التي نزلت إلى القرية في المساء.
قالت "تاتو" وهي تضحك:
- ألم تلاحظ الفرح والغبطة التي تعلو وجه "إكريك" اليوم؟.. يبدو أن جورج عثر على دواء لها..!!
وفجأة سمعنا صوت "عياش" يصيح وهو قادم:
- أفسحوا لنا المجال.. أفسحوا المجال فقد ابتل كل شيء..
ودخل الثلاثة كأنهم خارجون للتو من حوض السباحة وقد التصقت ملابسهم على أجسامهم بفعل البلل.. جلست "إكريك" وهي تحاول كبت أنفاسها المتقطعة والتفتت إلي ثم ابتسمت فيما غمزني

"جورج" الذي لا يزال واقفا ينتظر إحضار "عياش" لحقائبهما من خيمتهم لاستبدال الملابس وقال:
- إن هذا المطر جميل جدا.. لقد جعلنا نجري بأقصى ما يمكننا، وكانت "إكريك" أسرعنا.. كيف حالك؟ يبدو أنك شفيت.. أتمنى يوما أن أراك أنت و"تاتو" عروسين.. سيكون الأمر تاريخيا..
التفتت إليه "تاتو" حيث يقف عند أكتافها وقالت:
- الدنيا يانصيب.. يا دكتور..
واستمر هطول المطر بوتائر مختلفة.. تارة يرتفع حتى يصبح في مستوى عزف المقامات العالية.. ثم يبدأ سلمه في النزول شيئا فشيئا، ليبدأ الصعود مرة أخرى، وباتت السماء ملاعب خرافية للبروق المضيئة، كأنها خيوط الحرير والماس التي تزين صدر شابة سوداء... وفي الساعة الواحدة ليلا كان الجميع قد نام تحت الخيمة باستثنائي أنا والدكتور "جورج" حيث خرجنا مع توقف المطر متجهين إلى خيمته وأشعلنا المصباح وجلسنا متقابلين.. لقد كان كل منا يستعجل هذا اللقاء.
- إنك ضعيف نفسيا.. حدثني عما جرى.. قبل ذلك سأجيبك على أسئلتك.. إن "تاتو" لا تعلم شيئا، ولو علمته لكان ذلك مفاجئا لها من شخص مثلي، ثانيا هذه الطفلة ولدت بلا جنس، وهذه الولادات رغم التقدم الطبي لم تتغلب على الكثير من الأشياء، فقد ولدت بعقدة غياب المنشأ الطبيعي، وهذا مفهوم قد لا تستوعبه، باختصار هناك جين مجهول أو شيء ما، جعل هذه الطفلة تفتقد التوازن الطبيعي لشخصيتها، لأنها لم تولد نتيجة للحظة لقاء إنساني.. وهذا ما ولد فيها طاقة غير اعتيادية لحب الجنس والتمتع به.. وكانت هذه الطاقة نائمة في جزء من القارة النفسية الشاسعة لهذا المخلوق قبل أن أتمكن من اكتشاف هذا الشيء.. ولا أعرف إن كانت ستشفى أم لا، المهم أنه جزء هام من لغزها المحير.. ما تمكنت منه

حتى الآن هو فقط تحريك تلك الطاقة للانفجار.. وقد تكون لاحظت ذلك، فبإمكانها ممارسة الجنس لفترة طويلة لا تتحملها أي امرأة أخرى مهما كانت، حتى لو استخدمت العقاقير ذات المفعول المضاعف، وأسمي هذه الحالة "التعويض الأثري". ثالثا سنرحل بعد شهر واحد، وهذا قد يريحك أكثر، والآن تعال احك لي ما جرى.

بعد ساعة من الأخذ والرد في التفاصيل، وضعت جنبي لأنام وأنا ممتلئ بالسعادة، ربما كان هذا الدكتور قد نفخ رواقا خياليا في نفسيتي أعطاني هذا الشعور.. لكن مصدر راحتي النفسية يأتي أساسا من كون "تاتو" لن تعلم شيئا.. فقد وضعت أنا و"جورج" خطة لمواصلة جلساتي العلاجية مع "إكريك"، فبعد يومين سيصحب هو "تاتو" في رحلة للصيد، وبعد ذلك بأيام قليلة سيخضعها لجلسة بالتنويم المغناطيسي لمعالجتها من بعض الكوابيس حسب طلبها، وستستمر هذه الجلسة حتى أعود أنا و"إكريك" من جلستنا نحن بدورنا، ولكل يومين أو ثلاثة عذر.. ثم ينتهي الشهر ويرحلان...

***

على ضوء مصابيح الشوارع في المجرية وقف المراهقون يتبارون في ترتيل القرآن الكريم.. ثم جلسوا في حلقة دائرية وهم يرددون الأناشيد الصوفية، ويتوعدون الأيام المقبلة بمنحها أوسمة دموية هبة لتاريخ الشهادة وسجلاتها الطويلة.

يقف أحدهم ويرفع يديه نحو السماء:

((ليت النصر أبعد من هذه النجوم، حتى يكون للتضحية معنى..

سقطت تلال القمامة الخائنة في قلب المزبلة الزمنية الهزيلة..

الحريق المرتفع من القلوب يرمد الهالة الكيانية للآخرين.. الرماد لا يخاف النار بل إنها تزيده وهجا وجمالا.. إنما آفة الرماد في الرياح.. ونقطة ضعف الريح هي في الأبواب المغلقة التي تستريح خلفها مبادئكم، تستريح في ضمائر لصيقة بذاتيتها)).

ويقف شاب آخر ويرفع صوته باكيا:

((هل ترون مواجع الخراب المسربلة للأمة؟.. الأحزمة لا تشد قبضتها من تلقاء نفسها.. سمعتم في الأخبار أنه تم تحطيم مليون موقع إلكتروني حساس، وتم نقل مليارات المعلومات السرية لتصبح مشاعة للعامة.. وتم اغتيال رئيس شركة البرمجيات الجسمية عن بعد.. إن المعركة قد اتخذت الاحتياط الكافي لاستمراريتها..)).

يجلس الشاب الخطيب، فتبدأ المجموعة بترديد أغنيات المقاومة.. تنظر "تاتو" في ساعتها وتقترب مني:

- لعلهم يستمرون إلى الصباح؟ إن هؤلاء الصبيان لا يكشفون عن غضب عادي، ولا يبحثون عن رافعة للظلم، بل إنهم يسعون لحياة

أخرى من تصميمهم هم ووحدهم.. حياة يضعون تفاصيلها على حسب ذوقهم.. على كل إن منظرهم ممتع وصوتهم جميل، الجمال الوحيد في اجتماعهم هذا هو في ما يصدر عنهم من أغان عذبة، لكأنهم يختزنون في حناجرهم ربابات من خشب السنديان.

وتتوقف شاحنة الشرطة ويصعد إليها الشباب من تلقاء أنفسهم وكأنهم كانوا بانتظارها، ونصعد نحن بدورنا في سيارتنا لنعود إلى خيمتنا ونواصل سهرنا الاعتيادي ونقاشاتنا العلمية الفوضوية.. وعند الساعة الثالثة صباحا يشعر كلانا بأنه غير راغب في النوم فأقترح على "تاتو" أن نتمشى في جولة حول المكان.. كالعادة لا نخرج إلا باصطحاب المصباح خوفا من الاصطدام بالصخور أو تجنبا للحيات التي كثيرا ما تخرج من جحورها في فسحاتها الليلية الاقتصادية.. نسير صامتين حتى نبلغ منتصف الجبل ونجلس متلاصقي المنكبين، كالعادة لا تجلس "تاتو" إلا عن شمالي.. ونشرع في التدخين دون أن نتكلم، فقد تعبنا من الكلام، ولم يعد لدينا ما نقوله، على الأقل في هذا الوقت.

- هل تسمع صوتا هناك؟!

يصيخ كلانا السمع، فهنا صوت أنفاس متقطعة، ويبدو أنها على بعد خطوات قليلة وراء نتوء صخري في سفح الجبل تحتنا.. نسير في حذر كأن أقدامنا لا تلامس الأرض، المصباح في يد "تاتو" والمسدس بيدي وقد نزعت أمانه.. وقفنا فوق النتوء الصخري نسلط الضوء على مصدر الصوت فيقفز "سداتي" بفزع كما لو أن دائرة ضوء المصباح لهيب قد أحرق جلده، وتبقى "مريامه" جالسة بجمود من هول المفاجأة، حتى إنها لم تقم بستر أجزاء كثيرة من جسدها بعد أن لم يعد الخدين لباسا لها.

ينحرف مسار الضوء عنها، ونقفل راجعين ونحن نسمع بعض الخطوات التي تتبعنا في هدوء ثم تتجاوزنا من اليسار وكأنها تسبقنا إلى مخيم المحطة فيما لا نعرف مصير "مريامه"، وإلى متى ستظل

في مكانها، لا أعرف كيف ستواجهنا غدا، ولا كيف ستتصرف بجانب "عبود"؟! ولكن يبدو أنها معتادة على الخطيئة، وأن شخصيتها من النوع الذي لا يقبل الاستقامة. لقد ظن "عبود" أن هذه العزلة النسبية عن مجتمعها ستجعلها بمنأى عن سوابقها الأخلاقية.. وقد أخبرني قبل أسابيع أنه لاحظ ازدياد تدينها وحسن أدائها للصلاة، وكانت "تاتو" تستغرب التشابه الكبير بين طفل "عبود" الصغير وبين "سداتي".. إنه تشابه لم يعد له حظ من الصدفة في قناعتي على الأقل.

مع دخولنا الخيمة تصل رسالة ألكترونية من عمي يدعوني فيها للوفاء بالتزامي وزيارته في أقرب وقت ممكن.. تتمعن "تاتو" في الرسالة على الشاشة وفي أسارير وجه عمي ويصطبغ وجهها بمسحة حزن وتنظر إلي كأنها تستفسر عن موعد سفري، فأضع نظراتها في سلة التجاهل، وأبدأ في تدوين مذكراتي اليومية وبعد لحظات يرفع "سداتي" صوته بأذان الفجر فتنفجر "تاتو" ضاحكة، لكنها تطبق فمها كالطفلة الصغيرة بعد أن شعرت بوخز نظراتي الحادة لها. ثم أتركها وأتجه إلى الحمام لأتوضأ قبل أن تفوتني صلاة الجماعة مع العمال، نظرت وجهي في مرآة الحمام، فلاحظت احمرارا في عيوني يكشف عن تعبي وسد الفراق بيني وبين النوم منذ فجر الأمس، لكن النعاس يغمرني وبإمكاني النوم حتى الظهر إن شئت.

جلست مصطفا بين "سداتي" و"عياش" و"عرفات" ننتظر "عبود"، لكن خيوط الفجر بدأت تتكثف في الأفق، ولم يحضر، فتقدم عياش لإمامتنا ووقفت أنا و "سداتي" و"عرفات" متلاصقي المناكب خلفه.. رفع عياش صوته بتكبيرة الإحرام، ورتل الفاتحة وبدأ في سورة آل عمران، وتبين لنا شبح "عبود" وهو يخرج من خيمته على عجل متوجها إلينا، تجاوزنا قليلا، ووقف عند ظهورنا مع ركوع "عياش" وركوعنا خلفه.. دوت الرصاصة مخترقة رأس "سداتي" وهو راكع، فسقط منكبا على وجهه... قطعنا الصلاة وبادرنا بحمله إلى السيارة

وعندما وصلنا المستشفى كان قد فارق الحياة.. فجلسنا في البهو ننتظر التصريح الطبي بسحب الجثة ودفنها، ثم خرج إلينا "عياش" يحمل ورقة صفراء في يده وهو يتقدم السرير الذي يرقد فيه جثمان "سداتي"، فأجهشت "تاتو" بالبكاء.. وتتبعنا الجثمان إلى مصلى المستشفى حيث تمت الصلاة على المرحوم، وخرجنا نحن بالجثة على نقالة إلى المقبرة و"تاتو" تتبعنا من بعيد، وقد أصبح وجهها قطعة متفحمة من الحزن والكآبة.

انتهت مراسيم الدفن في حدود الساعة الثانية عشرة زوالا، ثم توجهنا إلى قسم الشرطة للقاء "عبود" الذي كان يجلس بين المحققين وهو يدخن بشراهة ويرفض الحديث، فيما وقفت سيارة للشرطة ونزلت منها "مريامه" والأطفال.. تفرسها الجميع بنظراته إلا "عبود" فقد أشاح عنها بنظره.. تقدم وكيل الشرطة ورفع يده بالتحية للضابط الجالس قبالة "عبود" وقال:

- حضرات.. لم أستطع أن أترك الأطفال وحدهم فجئت بالجميع.

- خذهم إلى الملجأ، باستثناء هذا الرضيع فدعه مع أمه..

- وقف "عبود" صارخا في وجه الضابط قائلا:

- لا أريده أن يرضع لبن أمه بعد اليوم! تصور أنها ما زالت لم تغتسل..؟!

نظرت إلى "مريامه" وقد كست وجهها ملامح حجرية وهي تقول:

- أيهما أفضل؛ من عليه جنابة، أم من عليه دم غيلة؟!

فقدت "تاتو" توازنها فكادت تسقط أرضا، لولا أن أحد رجال الشرطة بادر بنجدتها فاستعادت توازنها وأخذتها إلى مخيم المحطة بعد أن أعطيت تعليمات لـ "عياش" بالبقاء في قسم الشرطة للتدخل عند الحاجة ومتابعة القضية.

دخلنا الخيمة مع أحد ضباط التحقيق الذي سجل شهاداتنا في حادثة القتل، واعتمر قبعته وخرج مصفرا وهو يتفحص المكان من حوله تاركا إيانا نشرب الشاي، والحزن ينشب مخالبه في حشايانا..
- تصوري أن المسكين قتل وهو راكع!!
مسحت دموعها وهي تغمغم:
- كان يقول لي إنه ينوي الزواج بإحدى قريباته التي شاهدت صورتها في بريده الألكتروني. علينا إبلاغ أهله بالخبر وتعزيتهم وتحويل ممتلكاته إليهم.
قمت بفتح موقع "سداتي" الألكتروني وإبلاغ ذويه بالحادثة المؤلمة، وبعد الانتهاء من هذه المهمة الصعبة نفسيا فتحت الرسالة التي وصلت موقعه الإلكتروني أثناء محادثتي مع شقيقته.. كانت رسالة من خطيبته تقول فيها بعد مقدمة غزلية:
- "لقد حلمت البارحة بأنك تركب جملا أبيض له سنامان وأنك تحمل على رأسك صحنا من النحاس المزين بالنقوش، ورأيتك تنظر إلى الجمل وهو يأكل من تمر نخلة من نخيل "تكانت"... ثم أيقظتني والدتي لتقطع علي الحلم الجميل.. لقد دعوت كل صويحباتي لحفلة عرسنا التي ستقام في الموعد الذي حددته لك بعد عودة أخي مباشرة في العاشر من شهر محرم القادم...".
تركت الكمبيوتر وجلست مع "تاتو" حيث بدأ "عياش" يحدثنا عن الإجراءات التي يتخذها مسار التحقيق.. وكان يتكلم والدموع تنهمر من عينيه:
- لعنة الله على هذه المرأة! لكم راودتني عن نفسي! وكنت أتكتم على الأمر، وقد نصحت المرحوم بالعدول عن هذه العلاقة، لكن المكتوب يجري لا محالة!. بماذا ستتعشون الليلة؟ شخصيا ليست لدي رغبة في الأكل، لقد جرى ما جرى وكأنه حلم، وليته اقتصر على الترويع، ما يحز في ألما هو مصير هؤلاء الأطفال وتأثير الصدمة عليهم... هناك

سر لا بد أن أبوح لكم به، وهو أن المرحوم "سداتي" كان متزوجا سرا بسيدة تقطن هنا بالمجرية في حي الفاروق، وأعتقد أنها حامل.
- سنتدبر الأمر، حضّر العشاء بسرعة، فعليك النزول للمدينة لتبحث لنا عن عمال مناسبين.
- تول الأمر بنفسك؛ فـ"عياش" قد لا يكون على دراية كافية بالأشخاص.
- هو أعلم بالمدينة مني.
- قد تكون أنت الآخر مرتبطا بزواج سري، فقد أصبحت تكثر من النزول إليها!!.
- كأنك تغارين؟!
- لا تسئ فهمي.. فقط أعرف أنك زير نساء، والزير لا يجوع والظباء تراوده.
- شيء جميل.. السرية.. لقد نبهتني لفكرة جيدة...
- أو كوك!!. وكأنني عبدت لك الطريق.
وشعرت بها تكتم غيظها، حتى لو لم تردني زوجا، فالظاهر أنها تمن بي على امرأة أخرى.. إن لديها سرا لم أكتشفه بعد وقد يكون عائقا جسديا تخفيه عني، فهذا الجمال وهذه الحيوية الأنثوية الطاغية لا يمكن أن تظل في حصن منعزل إلا بدافع كبير. إنه عائق خلقي داخلي، فقد رأيتها كثيرا في ملابسها الداخلية وكان ظاهر الأشياء طبيعيا.. لكن للمرأة تفاصيل داخلية قد تكون أكثر فظاعة مما نتصور.
- فيم تهيم؟
- في امرأة لا تدفعني لأن أقتل وأنا أصلي.
- لماذا أنت جسديٌّ إلى هذا الحد؟!.. نحن لا نزال في مأتم، وأنت حزين، ومع ذلك تشتعل رغبة، دعنا من هذا المجال، ابعث لعمك برسالة تخبره بما جرى وبأنك ستتأخر لمدة شهر على الأقل. فالعمال

يحتاجون لتدريب، وأنا خائفة ومتألمة.. إنني الآن أعيش مع أولئك الأطفال في عالم مأساتهم.
أردت استفزازها، ولكنني عدلت عن ذلك حتى لا تنهار، فهي شخصية حساسة جدا..
- أمرك.. آنستي.. إن شئت أجلت الزيارة لأشهر...
- قل "تاتو"؟...
- "تاتو"..
نظرت من نافذة الخيمة فرأيت الأفق وقد تخضب بالغيوم، ما ينبئ بأن السماء ستمطر هذه الليلة. ونظرت إلى خيمة "عبود" المنتصبة في سكون تام.. خالية من صوت الأطفال وصوت آلات المطبخ، خيمة حزينة خاوية تذكر بعظام شاة البدوي عندما أمسكها وقال بعد التأمل فيها:" كان يحلب منها اللبن".. وعدت لأجلس إلى مائدة العشاء، مع "تاتو" بعد أن استأذن "عياش" بالانصراف للبحث عن عمال جدد وزيارة "عبود" و"مريامه" والأطفال.. مددنا أيدينا إلى الطعام وقد بدأ المطر معزوفته الخالدة. كانت دموع "تاتو" تسقط منزلقة على وجنتيها مثل حبات الماس المضيئة وهي تأكل صامتة.

***

وقف العمال مصطفين ينتظرون خروجي من الخيمة لتوديعي، وارتديت ملابسي على عجل، واقتربت من "تاتو" التي وضعت حقيبتي وفتحت ذراعيها لتعانقني وهي تبتسم.. عناق طويل فيه من الحميمية ما يفوق العلاقة الظاهرية.. وحملت حقيبتي لأودع العمال على عجل وأنطلق، وصورة "تاتو" في مرآة السيارة وهي تقف بباب الخيمة وتلوح بيدها.. شعرت بأنني أغادر أسرتي الشخصية.. وأن الجذور تمتد بسرعة في علاقتنا العائلية الجديدة.. هناك فوق الجبل تشكل مجتمع صغير يمثل البشرية في صورة مصغرة عن الواقع.. أتصل بعمي وأخبره أنني في الطريق، ويتصل العمال واحدا بعد الآخر يطمئنون علي.. آخرهم كان "عرفات" يقول لي بأن "تاتو" لا تزال منزوية في خيمتها وهي تبكي..

- قلت لك هذه المرأة تعشقك.. وما تصفه لي عنها هو مجرد حالة من العشق تصلها المرأة فيصعب عليها العطاء.. لكنها ستنفجر يوما ما باكية تحت قدميك.. وسيكون سقوطها بشعا.. ويدعو للشفقة.

- المرأة مثل الزلازل لا يمكن رصدها إلا بعد أن تتحرك..

وتهب عاصفة رملية، فينسد الأفق بالأتربة والغبار وينخفض مستوى الرؤية إلى أمتار محدودة.. فأسير بهدوء، وأستمع لنشرة الأخبار من الهاتف النقال.. يظهر على جانب الطريق قنفذ صغير فأتوقف لالتقاطه وأضعه في المقعد المجاور، ثم أنطلق. وقد ازدادت العاصفة كثافة.

- أين وصلت؟

- ما زلت بعيدا.. فالعاصفة شديدة، ومجال الرؤية ضيق، إنني أسير بسرعة خمسين كيلومترا فقط في الساعة.
- إنهم سيجنون شوقا إليك، سر على حذر فسلامتك أولى.. لقد أعدوا من الموائد ما يكفي لإطعامك ربع قرن.
- إن رؤية وجهك أحب إلي من طعام الدنيا كله يا أبي.. ورؤية إخوتي أحب إلي من شراب الدنيا كله.
- لقد فضلتهم علي فالشراب أفضل من الطعام.
- على كل حال أنتم طعامي وشرابي..
- الأخبار تقول إن شركة البرمجيات الجسمية عن بعد توصلت لاكتشاف هام في مجال الحاسة السادسة. يشير الهاتف إلى أن بجانبك قنفذاً صغيراً، من أين التقطته؟
- من الطريق.
- لمن ستهديه؟
- سأهديه للمقاومة.

يضحك عمي ويلقي بظهره على السرير، ويرفع قدمه اليسرى ليسندها على الحائط. تدخل زينب وتلوح لي بيدها.

- بابا أين وصل أخي؟
- ترينه في الشاشة.. أعتقد أن المنطقة من حوله تظهره في ضواحي ألاك..

تبتسم زينب وتخرج من الغرفة مسرعة، فيعود عمي ليضحك.

- وماذا ستفعل المقاومة بقنفذ؟
- تبرمجه جسما عن بعد، فينفجر نوويا ويهلك الكرة الأرضية.. ويستريح الإنسان من عذاب الصراع.
- إن هذا الكلام خطير.. وقد تتهم.. وقد يسجل التاريخ أنك نوبل جديد.

- المقاومة تعرف بقراءة جسمية، وليس بهراء صاحبه متعب من هذه المسافة الطويلة وكأنه زوج مرغم على مسايرة زوجة لا يريدها.
- صدقت.!. أجبني، ما قصة ينبوع من أظافر يخرج من تحت ظل باهت لشعرة مرسومة على ظل شجرة؟
- لعلهم صبيان الغابة الإسمنتية الذين يملكون الأوهام الزجاجية، ويتطهرون بدموعهم من رجس الشيطان.
- يبدو أن هناك مكالمات تنتظر على هاتفك سأتركك في أمان الله.

ترد مكالمات من جامعات عديدة في العالم تطلبني للعمل في مراكزها بعد شيوع خبر نتائج بحثي، أعتذر بمجاملة.. وأعطي وعدا بدراسة العروض المقدمة مستقبلا.. أجمل هذه العروض ما قدمته جامعة تابعة لشركة ألكترونية مختصة بالبرمجيات المعنية بالزراعة. يقول هذا العرض إنني فضلا عن المرتب والمستحقات الأخرى، سأحصل على مجمع سكني مسجل باسمي ويضم قرية ترفيهية وفيه خمسون فتاة لا يتعدى عمر أي منهن العشرين سنة، هن ملكي مدى الحياة.. هكذا وقعن اتفاقية الاستخدام مدى الحياة!!.. إننا في عصر أصبح للإنسان فيه حق توقيع عقد عبوديته..

عرض آخر من شركة ثانية يقدم منزلا هو عبارة عن جزيرة صناعية في البحر الأبيض المتوسط، مجهزة بكل مستلزمات الحياة، مع نسبة من أرباح الشركة.

عروض براقة ستحدها الصياغة في عقد العمل إلى حدود دور خادم بين تلك الجواري، لا يختلف عن دورهن كثيرا.. لذلك أصمم على أن أعمل بشكل خصوصي، لأنهم في النهاية سيدفعون ما أريد من ثمن لبضاعتي الذهنية، تلك البضاعة التي ستفلسهم لأن نسختها الأصلية ستكون بيد المقاومة. أما أنا فسوف أرضي ضميري وسوف أشبع جسدي على الطريقة التي أراها تناسبني.

توقفت عند القيلولة في منتجع سياحي على الطريق، في غرفتي المكيفة مكثت أتأمل من النافذة منظر الزوارق الهوائية، لا أطيق هذه الزوارق، يدخل خادم هندي يحمل مائدة طلباتي، وينصرف بسرعة، أجلس إلى المائدة بانتظار طلبية أخرى لم تصل بعد. وبعد لحظات يفتح الباب بهدوء ويطل منه رأس شابة غجرية الأصل. تبتسم فأشير لها بالجلوس قبالتي وهي تبتسم بتصنع..

- مرحبا.. لقد تغديت.. لذا لن أشاطرك الأكل.. لكنني سأمتعك.. كل جيدا لتقوى على المتعة...

- أسرع في الأكل وأنا أنظر إلى ما تعرى من صدرها.. لكم مر عليه من أياد جائعة مارست رغبتها بغجرية وتوحش... قد تكون أصبحت آلية التعامل مع الرجال.. صحون تنظفها من شهوتها وترصها على الجانب.. جسدها تعلم المرونة والقابلية لشتى الأوضاع طبقا لرغبة كل الواردين وأذواقهم في الممارسة.. تستقبل الكل بجوع وكأن جسدها يلامس جسد رجل لأول مرة.. أعرف هذه الألاعيب التي يمارسها هذا النوع من النساء، يعامل عقل الزبون بنفس القيمة التي يعامل بها جسده ... ومع ذلك كل يعتقد أنه لعب لعبته وحصل على مبتغاه...

- لم تأكل بما فيه الكفاية؟

- هل تخبرينني.. الزبون رقم كم اليوم؟..

تبتسم بشبه براءة وتقول:

- الحق أنني منذ أسبوع لم أمارس الحب، فقد كنت في الدورة الشهرية..

لن أصدقها طبعا، فهذه من مفردات اللغة المعتادة في هذا القاموس الجنسي المفتوح دائما.. أنظر إلى فخذيها.. تستهويني الأفخاذ أكثر من أي عضو آخر في المرأة.. أجدهما مغريين وفيهما شيء من فخذي "تاتو"، والغريب أنها تلبس نفس الزي الذي تركتها وهي تلبسه.. أطلب

منها أن تقترب، فتلفحني برائحة أنفاسها المختلطة بعطر خفيف، تتمدد مثل الحية الناعمة وتغمض عينيها الواسعتين.. ورغم ذلك أفضل أن أبقى على طهارتي في يوم السفر هذا.. فأكتفي ببعض القبلات، وأدعي أن الوقت يطاردني لمواصلة الرحلة.. وأتركها وهي تبتسم مستلقية على الأريكة الوثيرة للغرفة وكأنها لا تصدق أنني سأرحل وقد دفعت الفاتورة مجانا.. قد يوسوس لها الشيطان بأنني لا أرغب في جسمها أو لم يعجبني فيها شيء معين أو أنني رأيت من ظباء المنتزه من هي أفضل منها.. إنني أعرف مقدار خيبة أمل المومس عندما تشعر بأن بضاعتها بارت، ولعلها تعيش أكبر المعضلات النفسية البشرية في العالم، فما أسهل سبر أغوار جسدها وأبعد الاقتراب من نفسيتها!!.. دائما مولع بعالم هذا النوع من النساء اللواتي يستخدمن أجسادهن للكسب المادي بهذا الشكل المباشر، صاحبات أول مهنة في التاريخ، يؤسسن لرؤية غير تلك التي يظهرن بها، ولعلهن يجلدن البشرية ويكشفن فيها من جوانب الخطايا ما لا تود انكشافه، ولا ترغب في رؤيته...

***

الجدران؛ جدران هذا البيت ليست ببغاء يردد صوت الصدى الذي يلتقطه في الخفاء بنسخته الأصلية، فهو يعيد النغمة إليك بنبرة صخوره القديمة وعيدانه المتآكلة.. يتسرب إليك منه تاريخ المكان، فتمتلئ عيناك بجغرافيته.. وأصالته المعمارية، وتظهر لك أشباح من شيدوه وسكنوه وحولوه إلى معلم أثري بفعل صنائعهم، ولذلك تختلف البنايات بالرموز التي قصدت لها أو حالفها الحظ فكانت مسرحا لتواجد تلك الرموز... فالبيت الذي ولد فيه شخص غير اعتيادي يتحول إلى بيت غير اعتيادي، رغم أنه من طين وقش، وقد لا يحمل أي رموز معمارية تشفع له في سجل شرف البنايات الأخرى.. هذا البيت هو واحد من تلك البيوت التي دخلت التاريخ عبر بوابة الرجل الذي ولد فيه، فقد ولد هنا طفل يتيم فاقد العينين هجرته والدته عندما توفي والده وهو لا يزال في السابعة من عمره وقد تسابق الجيران لكفالته وخاضوا صراعا طويلا قبل أن تسمح لهم جمعية رعاية الأطفال بتبنيه، وأعاله رجل معروف بتدينه، وصار الطفل نابغة في الرسم فبيعت إحدى لوحاته بمبالغ ضخمة، مكنته وهو في الخامسة عشرة من عمره من كفالة أربعة آلاف يتيم مدى الحياة... ووالدته التي عادت مع زوجها الجديد.. نسي الطفل ما فعلته به أمه، وغفر لها، ولكنه لم يستطع أن يغفر لزوجها وظل يحس بأنه يستولي على حق والده فرسمه في لوحته المشهورة التي دفعت زوج أمه للانتحار، لشعوره بالعار مما خلدته عنه تلك اللوحة بخطوط بسيطة من الحبر، ولكنها جعلته من مهازل

البشرية، كانت الأم قد حضرت واقعة انتحار زوجها ولم تتمكن من إنقاذه فجن جنونها، وفي اليوم الموالي لموته قامت - وبأعصاب باردة - بذبح ابنها الأكمه، وتلطيخ اللوحة التي رسمها عن زوجها بدمه، حتى اختفت معالم نسختها الأصلية.. واهتز العالم يومها لتلك الحادثة الغريبة...

انطلقت تاركا هذا البيت وقصته، فقد أصبحت على مسافة قريبة من بيت عمي وسيكون الاستقبال رائعا، فالجميع ينتظرونني على أعصابهم.. وسأضطر لعناقات طويلة وحميمية..

جلست على فخذ عمي وهو يحيطني بذراعه القوية وكأنه يدللني مثل الصبي، وأقبل إخوتي يتجمهرون من حولنا مثل الأطفال الصغار.. وكان وجه زينب يتلألأ فرحا وحياء، وهي تكاد تأكلني بنظراتها الشبقة.. وأخذت المائدة نصيبها بيننا.. ودار الحديث عن كل شيء.. عن الذكريات ونحن صغار، وعن مشاجراتنا، ونكاتنا، والمقالب التي كان بعضنا ينصبها للبعض، وعن أعمالنا ومستقبلنا... وفي منتصف الليل انفض الجمع ليأوي كل إلى غرفته المليئة بأجهزة الكمبيوتر التي تغص بالشبكات الرقمية وما تبثه عن العالم.. دخلت غرفة زينب التي هبت واقفة وكادت تعانقني لولا أن مغناطيسية الحياء جذبتها إلى صوابها، فجلست على السرير متدلية القدمين وابتسمت ابتسامتها الجميلة..

- إنك تضيعني بطول الانتظار..

أسندت ظهري إلى صدرها النافر، وأمسكت بذقنها أقبلها..

- عمري.. لا يمكنك أن تظلي حبيسة رجل مجنون مثلي، مطاردته تشبه مطاردة الأشباح الافتراضية...

ابتسمت وهي تشد ذراعيها من فوق ظهري وتضمني بحرارة بين فخذيها..

- مهما يكن سأكون لك.. حتى لو تزوجني غيرك فستجدني عند قدميك متى ما شئت.. أنت تجري مني مجرى الدم من العروق.. إنك شريان

من شراييني لا أستغني عنه... سوف تستولي عليك تلك الكافرة، ولكنني سأقاسمها حبك وجسدك... وأشعلت لغة الملامسة ما تبقى لنا من صواب فغرقنا في وعي الغيبوبة اللذيذة، وتركنا لأنفسنا حرية التصرف بفطرية بدائية... رائحة زينب لا تشبه رائحة أية امرأة عرفتها حتى بين طالبات الجامعة اللواتي كن يتهافتن علي.. أشم في زينب شيئا مني، من جذوري البعيدة ومن سلمها.. سلم الدم..

- تعال نستحم معا.. كنا نفعل ذلك صغارا.. لماذا تخافني.. كلما نظرت إلى وجهك شعرت بأنني ما زلت في التاسعة من عمري...

- تقدم لك الكثيرون أيتها الجميلة، فتزوجي ولا تنتظريني، لأنني سأضع العالم على كف عفريت، ولا يمكنني أن أكون رب أسرة صالحة، لا بد أن أضحي بكثير من الوقت على نصب الأوهام التي يراودني تحويلها إلى حقيقة..

- ربما أفعل.. على أن تعاهدني بأنك ستبقى كما كنت... أبي أيضا أصبح يلح كثيرا علي في موضوع الزواج، ويقول إنك ستكون مشغولا في السنوات القادمة.. ولن تجد الوقت لأن تكون رب أسرة...

يقطع مواء القطة "عاتكة" حديثنا، فتلتفت زينب ضاحكة وتقول:

- هذه قطتي جاءت تحييك.. تأخرت الليلة وربما تكون قد انشغلت بحبيب قادم هي الأخرى...!.. انظر إلى عينيها الصافيتين مثل ضمير الأطفال...

وتمسح بيدها على ظهر "عاتكة"، وبيدها الأخرى على شعري...

- الفجر أصبح قريبا... وأنت متعب فهيا إلى النوم أما أنا فلا أشعر برغبة فيه، سأستعيد شريط لقائنا ريثما يتجدد ليلة غد...

تقودني إلى الغرفة المخصصة لنومي فلم أتعود بعد على البيت، وتغلق الباب خلفي فأنزع ملابسي استعدادا للنوم، يفتح الهاتف نفسه تلقائيا عن حالة طارئة، أقرأ الرسالة الواردة للتو من "تاتو" تعلمني فيها بوصول أسرتها إلى مخيم محطة "أشتف"... "لقد تعمدت إخفاء خبر زيارتهم

لنا عنك حتى لا يتأخر سفرك، ولا أسبب لك إحراجا بحضور"رايت".. سيغار إن وجدك معي، ولذلك فهم سيغادرون خلال أسبوع أي بعد عودتك... رجاء لا تبعث إلي رسائل مصورة.. يمكنك الاكتفاء بالرسائل النصية... أحبك"..

إنها تتعمد إغضابي بهذه الرسالة، ويأتي تركيزها على موضوع "رايت"، لتجعلني مشغولا عن التمتع بهذه الزيارة، ولكنها لن تنجح في ذلك، فسوف أزور أقاربي ومعارفي وأصحابي وأتمتع بلحظات الحب مع فتيات هذه القرية... ولتتمتع هي بـ"رايت" لا متعه الله بها أبدا... ملعون هذا الرجل يقف في وجه سعادتي بارتباطه بهذه المرأة... المرأة الوحيدة التي يمكنني معها أن أستقر وأبدع وأشعر أنني حصلت على نصيبي من الدنيا... إن مرادها لن يتحقق وسأجعل "رايت" يجن ويفقد صوابه ويقدم على فسخ ارتباطه بها.. أو سأجعله يعيش الجحيم مدى حياته...

وأمضيت بقية الليل في التفكير في الطريقة التي سأقلب بها سعادة "رايت" إلى عذاب، وأرتب السيناريوهات الأمثل لخطة ماكرة، وأنا أعرف أنني لست من النوع الخبير بألاعيب المجتمع ومراوغاته، إلا أنني سأجرب حظي على محك هذا الرجل... ونبهني طرق خفيف على الباب وصوت عمي يدعوني للصلاة، فقمت بتثاقل وتوجهت للوضوء وصليت في مسجد البيت مع إخوتي وعمي... واجتمعنا حول مائدة الفطور الذي تناولت منه القليل وآويت إلى فراشي لأنام حتى الساعة الثالثة ظهرا عندما أيقظوني للغداء.. فاستقيظت مرتاحا ولي رغبة كبيرة بالمزاح والجو الأسري الذي تربيت فيه، فهذه عائلتي الحقيقية، أحفظ تقاسيمهم وطباعهم عن ظهر قلب..

- نمت كثيرا.

قال عمي، والتفت إلى زينب وأضاف:

- وأنت أيضا؟

لم تجب زينب، فتدخل شقيقها محمد:
- سهرت مع الكمبيوتر.. هو اليوم أنيس كل الناس صغارا وكبارا.. يجدون فيه تعويضا لكل ما يبحثون عنه..
- شخصيا لا أطيق هذه الآلة، أنت من تتمتع بها وتستغرق ثلثين من وقتك.. وشغلك الشاغل هو مشاهدة الأفلام والاستماع للأسطوانات الغنائية.. شيء لا يفيد في الدنيا ولا الآخرة.
- زينب.. لا تنه عن خلق وتأتي مثله..
حدجهما عمي بنظرة قاسية، وكأنما يقول لهما إن هذا وقت أُلفة مع الابن الضيف.. فابتسمت سعاد وقالت بتلعثم:
- أبنائي ناقصون من دونك يا "عمر"، كيف تعود في العطلة وتبقى وحيدا في البيت ثم تسافر مع تلك الباحثة وكأن لا أهل لك؟!! ألم يكن من الواجب أن تزورنا أولاً، وتمضي معنا عطلتك؟!.
لقد تغيرت ملامح سعاد بعدي كثيرا، فتحت الماكياج الهادئ ترى تفاصيل الشيخوخة قد اجتاحت وجهها وشعرها الذي أصحب بالأبيض والأسود رغم أنها لا تتجاوز الخمسين كثيرا.. ولكن النساء في مثل هذه المرحلة يشهدن تدهورا متسارعا في شكلهن الخارجي.. كدت لا أنتبه للرد عليها، فابتسمت ببلاهة وقلت:
- صدقت.. لعل سوء حظي أوقعني فيما قلت... وأقسم لك أنني تعبت ودخلت في ألف ضائقة، فقد لجأت للعمل مع تلك الباحثة لأن المكان يجمع بين بحثينا وكنت أرغب في أن أنهي بحثي دفعة واحدة وأستريح من الحياة الجامعية، والآن قطعت معظم المسافة.. و لم يبق في جرتي غير أشهر قليلة.. وأبدأ عملي من هنا من هذا البيت.
- تقولون ذلك وعندما تكبرون تنسون التزاماتكم.
انفجر الجميع بالضحك، فلم نعد صغارا إلا في عيون سعاد.. وهذه هي مشاعر الأم.
- إلا أنا فلن أفارقك.. البنات أفضل من البنين...

ردت عليها زينب وهي تشاطرنا الضحك:
- هذا الكلام قبل الزواج، وبمجرد أن تصبحي في ذمة رجل آخر ستنسين هذا الالتزام.. وعندما يعود شقيقك أحمد سيقول نفس الكلام.
- تقولين شقيقي.. أمي هل لدي إخوة غير أشقاء؟
ننفجر ضاحكين:
- اسألي أباك..
- أبي لا علم له بغيرنا.
- ومن أدراني؟.. لم أفاتحه يوما في حياته خارج البيت...
يتدخل عمي ليغير مجرى الحديث بلباقته المعروفة:
- يجب أن نقوم بجولة في هذا المساء خارج القرية، ونذهب إلى المتنزهات ثم نعود للقيام بزيارة جماعية للأقارب، فمنذ مدة لم نزرهم.. قطعنا صلة رحمهم...
يختلط منظر الحديقة الخضراء مع منظر السحب البيضاء في الأفق، فتشتهي العين امتصاص هذا المشهد باستمرار، وتتفرق في الحديقة المقامة على شبه ربوة تتوسطها شجيرات النخيل والسدر والطلح والبشام، وتنتشر في مساحتها مزروعات مختلفة لأنواع كثيرة من الخضراوات والفواكه فيما تجوب سماءها طواحين الهواء العملاقة التي تستجلب الماء من العيون وتولد الطاقة الكهربائية.. وفي منتصف هذه الحديقة تقع أعرشة بنيت من سعف النخيل بأشكال هندسية متعددة وجميلة ذات طابع تراثي حيث صممت أساسا على شكل خيام..
انفرد عمي بزوجته في جانب المزرعة، وجلست أنا وزينب وشقيقها محمد نتبادل الحديث والمكسرات والمشروبات والحديث عن بناء المزرعة، حيث أنفق فيها عمي ملايين كثيرة على مدى سنوات طويلة، على أن يكون تعميره لهذه الأرض المتوارثة للعائلة جدا عن جد كافياً من الربح المادي، وعلامة فارقة على حب الاحتفاظ بالجذور.. حتى الجذور المادية للأسرة..

قالت زينب وهي ترف عينيها الدائريتين الواسعتين مثل صحون الهواء الشاخصة إلى السماء:
- سأشتري هذه الحديقة من والدي وسوف أضيف إليها بعض الحيوانات البرية والمتوحشة... خصوصا الأسود والثعالب.. أحب الثعالب.. هذه الحيوانات لا يحبها الجميع لأنها ذكية وقادرة على الاحتيال على الإنسان والحيوان معا بفضل غريزتها الاحتيالية... ومع ذلك فهي رشيقة جدا وجميلة اللون..
خطر على بالي أن الوقت المناسب قد حان لأهين "تاتو" و"رايت" معا وأن أضرب الخصمين بحجر واحد.. وسوف أتثعلب في هذا المساء مثلما لم يخطر على بالهما.. وهكذا طلبت من محمد الانضمام لوالديه لأن لدي حديثا خاصا مع زينب، فنفض يده من علبة البسكويت وهو يحملق حائراً، ثم نهض ومشى لتبتلعه أشجار الحديقة... فطلبت من زينب أن تقف بجانبي وكانت أعضاء جسمها بارزة من بدلتها الزرقاء السماوية، وهي تقف إلى جانبي فوق العشب الكثيف عندما بدأت تسجيل الرسالة المصورة التالية:
" أهلا.. هذا أنا... أحييك، وهذه الصغيرة هي بنت عمي بمثابة شقيقتي الصغيرة، خرجنا اليوم لنزور حديقة عمي كما تشاهدينها في الخلفية.. أبلغي الجميع تحياتي وخاصة والديك.. أما عنك، فأنت تعلمين عندما أعود أنني سوف أكون لك كما كنت.. لكن أرجوك لا تظني أن تأخري عنك هو نوع من الملل الذي يصيب الرجال... فأنت تعلمين كم أعطيتك، وما أعطيتك حتى الآن لا يبلغ مثقال ذرة مما أدخره لك...".
وأوقفت زر التسجيل، وأدخلت الرقم الخاص للإرسال والعنوان، ثم التفت إلى زينب لأجد وجهها قد علته صفرة الحزن وهي تفغر فاها مندهشة مما كنت أقول..
- هذه رسالة مزاح، فـ"تاتو" متزوجة وقد وصل زوجها بعدي، وسوف أورطها في مشكلة اجتماعية صغيرة..

حاولت أن تظهر أنها تصدقني في هذه المزاعم، فابتسمت وأمسكت بيدي، ونحن نتمشى ونقترب من خزان الماء الضخم في وسط الحديقة..
- إذن لست مجرد عامل بل أنت صديقها ما دمت تمازحها؟...
- عامل، نعم عامل.. ولكن لي صفة إنسانية أيضا.. نحن بشر لا بد أن تكون لنا علاقات اجتماعية مع من نعمل معهم، وإلا كنا آلات ولم نستطع الاستمرار في العمل ولو ليوم واحد حتى لو كنا نتقاضى الملايين...
- صح.. عذراً! المهم أنك الآن معي.. قل لي إلى متى ستبقى معنا..؟
- ومن قال لك إنني سأترككم؟.. فقط أسبوعان وأسافر...
- ومتى تعود؟
- انتظري حتى أسافر أولا..
- نحن العشاق ننتظر عودة المحب قبل أن يسافر...
- أتحتقرينني بهذا الكلام؟!.. نحن العشاق نسافر ونعود مع الحبيب...
- هذا كلام مجوف.. سمعته كثيرا..
- من من؟..
وضعت سبابتها اليسرى على شفتي وقالت:
- من هاتين الشفتين الكذابتين..
- شكرا.. هذا جزائي... ومكافأتي على كل هذا الشوق الذي جئت أحمله إليك..
- جئت تحمل شبقك، وقضيت حاجتك مثل أي حمار يسل لاسلكيّهُ ثم يعيد طياته لترتيبها بعد التقاطه لنشوة عابرة..
وجلست تبكي.. ثم قفزت واقفة عندما لمعت شبح والدها وهو قادم إلينا ومسحت دموعها وتصنعت الفرح والسرور.. ما أسرع التقلبات المناخية لوجوه النساء...
- لماذا طلبتما الانفراد؟

ألقى الكلمة في وجوهنا مثلما تسقط قطعة من الرغيف الساخن على وجنتيك.. وتركنا ننظر إلى أنفسنا في خجل..
- سأحادثك على انفراد يا عمي في الموضوع.
-لا ليس هكذا فهمت.. إنما الوقت وقت نزهة ولديكما الوقت لتناقشا شؤونكما على انفراد في بيتكما... أما الآن فقد حان موعد زيارة الأقارب...
عدنا إلى القرية ويبدو أن أقاربنا أكثر مما كنت أتصور، فلم نتمكن من العودة إلى البيت إلا في الساعات الأولى للفجر... كل الأسر التي زرناها كانت تقيم شبه احتفال احتراما لشخص عمي وتقديرا لدوره في القرية ومكانته الوظيفية السابقة، وكنت أقتل الوقت الذي نمضيه مع كل أسرة بالتفكير في المستقبليات، وتأمل أوضاع هذه الأسر ونمط عيشها.. إلا تلك الأسرة الزنجية التي تربطنا بها خؤولة من بعيد، فقبل أن ندخل الباب قال عمي موجها كلامه لي بالخصوص:
- هم يعرفون هذه الأسرة، أسرة فلانية، وأمها تنحدر منا، حيث تلتقي معنا عند الجد السابع.
واستقبلتنا الأسرة بالترحاب وجلسنا في الصالون المزركش بالقطائف والسجاد، كان كبير الأسرة رجلا في السبعين من عمره، تشع عيناه ذكاء وتكشف أسارير وجهه عن بقية من تقوى وشيء من البساطة، التفت إلي وقال:
- منذ الصبا التقيتك في مكتب عملك هذا عندما كان يحقق معي في قضية تدمير أحد مقاهي الجنس الثالث، وقد دخلت عليه تبشره باحتلالك للمرتبة الأولى على صفك.. هل تذكر ذلك؟...
والتفت إلى عمي الذي ابتسم بإحراج، وقال:
- أذكر..
ثم خطر له أن يضيف مزحة:

- وأذكر يا "حميدو باه" أنك كنت جبانا في التحقيق، حتى إنك أدليت بمعلومات لم نطلبها..
وضحك الجميع، ثم دخلت علينا تلك الشابة السوداء تحمل صينية الشراب، فأخذ الجميع يتفرسها بنظراته، بينما وزعت الشراب وانصرفت على عجل..
كانت شابة جميلة جدا، نموذجاً للأنوثة السوداء الصارخة الجمال... الفتاة الإفريقية تعطيك انطباعا بأن أنوثتها بدائية... وأن جمالها نسخة أصلية...
علمت في هذه الجلسة بأنها تدرس في "جامعة المرابطين"، ومن هنا يمكنني الحصول على عنوانها الشخصي على الشبكات الرقمية، فأتصل بها بدون رقيب.. برغم كل التقدم التكنولوجي والاجتماعي، والتطور المدني في حياة الإنسان منذ القرن العشرين، لا يزال الرقيب الاجتماعي حيا ويفرض نفسه... فالآباء يراقبون مواقع أبنائهم الإلكترونية فضلا عن تحركاتهم، ويتدخلون في شؤونهم الخاصة.. ومع ذلك تستمر الحياة ويستمر التطور في كل الاتجاهات... فالاستغلال والاسترقاق بشكله التقليدي اختفى، ولكنه برز بشكل جديد وأكثر خطورة، مثل سلالات الميكروبات التي اكتسبت حصانة جديدة ضد المضادات الحيوية.. والاستغلال الحالي للإنسان من طرف أخيه الإنسان هو الأبشع في التاريخ، رغم هذه المظهرية الكاذبة.. فوسائط الاتصال وحدها بنيت أصلا على الاستغلال السيئ للإنسان من حيث لا يشعر ومن حيث يبدي رغبة في هذا الاستغلال، بل ويتسابق عليه كحق من حقوقه واختيار من خياراته...
وآويت إلى فراشي بعد أن سجلت رسالة خاصة لـ"هاوه".. هذا هو اسم تلك الشابة الفلانية التي داهمت مكان "تاتو" في قلبي وكادت تطمس صورتها من هويته الغرامية... واستسلمت للنعاس ولكن منبه الرسائل أخذ يصدر زقزقة العصافير مما ينبئ بوصول رسالة جديدة،

فأغالب النعاس ولكنني أستسلم للنوم وتبقى الرسالة الرقمية في طياتها، عند الساعة الثانية عشرة ظهرا أستيقظ فأقضي صلاة الصبح، وأتجه لغرفة الطعام لتناول الفطور، وهناك أفتح الرسائل الواردة وأقرأ:
"شكرا لرسالتك، رسالتك سبقتني قليلا، فقد كنت أنوي أن أفاتحك برسالة.. شكرا لك على مشاعرك... أصدقها، لأن ما أشعر به لا يمكن أن تكون على إلمام به.. يقولون لنا في الجامعة إن المرأة لا تحب إلا من يستجيب لا إراديا لها... الرجاء أن ألتقيك عند الساعة التاسعة صباحا في حديقة عمك وهناك سيكون لقاء تعارفنا..".
شعرت بالحرج الشديد، فهي إذن قد غادرت.. لن تنتظر أكثر من ثلاث ساعات وقد تتصور أن الأمر لعبة من "زينب" أو أنني كنت أعبث بمشاعرها، وتصل رسالة أخرى:
"تأخرت كثيرا ولم تأت.. إذا كان السبب في أن المكان والزمان لم يكونا مناسبين لك، فالرجاء أن تحدد أنت موعدا على حسب رغبتك...".
رغبتك.. رغبتك.. يا إلهي... لو كنت فتحت الرسالة البارحة.. متى كان النوم يرغب بي إلى هذه الدرجة؟... ودخلت زينب وجلست قبالتي وعيناها نصف مغلقتين من آثار النوم وصاحت بالخادم:
- هات فطوري.. لعنة الله عليك...
- البشر لا يخاطبون هكذا...
- هذه هي اللغة التي يفهم.. ولو أنني استخدمت معك مثلها لما كنت تهينني بتصرفاتك، وتعاملني كالدمية... بعد اليوم احتسب أن الدمية التاريخية ماتت، وأنني امرأة من هذيل أو بكر أو كندة، وسوف تعرف أنني لست قطعة سكر سرعان ما تذوب تحت قطرات غيمك...
كان هجوما مباغتا بالنسبة لي، فهل يكون بسبب تلك الرسالة أمس أم بسبب رسالة "هاوه"؟.. ومن أدراها بها؟ هل تتجسس عليها كصديقة؟ أم أن "هاوه" نفسها أعلمتها كما تفعل الصديقات بأخبار كل عشيق

جديد؟!... تناولت فطوري وخرجت، دون أن ألقي إليها بكلمة واحدة، بل تصنعت الغضب.. ولعلي من أفضل الناس الذين يتصنعون الغضب الملبس بمنظر يدعو للشفقة واستعطاف الآخرين... بهذه الصفة نجوت مرات، وكسبت مرات... أما الآن فالأمر خرج عن السيطرة، وهناك شيء تدبره هذه الصبية قد يخرج عن نطاق السيطرة، ولا أبالغ في المخاوف إذا قلت إنني ألمس أن عمي قد يحصل على تسريبات غير مباشرة من "زينب"، تجعله يتصرف بما يقلب حياتي إلى جحيم... هذه هي حال المرأة عندما لا ترضى بما يعطيه المحبوب، وأخوف ما يخافه الرجل العاقل هو أن ينقلب حب المرأة إلى كره أو إلى قنوط، عندها دائما فتستخدم آخر أسلحتها المدمرة وتعزف على قيثارة الشيطان من أجل إطراب نفسها على حطام الآخرين... كيف لي أن آمن مكرها وكيدها؟! واتكأت على سريري بعد أن أحكمت إغلاق الباب جيدا، ووضعت تفكيري في شأن "زينب" في رف الانتظار، وبعثت برسالة جديدة لـ"هاوه"، أحدد لها مكانا نلتقي فيه في أحد المتنزهات البعيدة من القرية، ثم قرأت رسالة وصلت من "تاتو" تقول فيها:

"وصلت رسالتك ونجحت لعبتك... فهنيئا لك.. لقد غضب وحلف أن لا يكلمني.. وما زال والداي يترضيانه.. هل هذا ما تريد؟...".

كانت الرسالة مقتضبة وتحمل في ثناياها غضبا مبطنا بعواقب لا أعرف نهايتها.... ورغم ذلك شعرت بالراحة تتسرب إلى جوانحي.. وما علي الآن إلا أن أبعث بالرسالة القاضية... وعدت أفكر في "زينب".. ماذا سأفعل.. علي الآن أن أتوقع الضربة من كل الجهات... ولكن علي أيضا أن أنتظر وقوع هذه الضربة ولا أرد عليها قبل أن تقع... إن الداهية الحقيقي هو من يرد على الضربة ولم تغادر مخيلة صاحبها... سأفعل هذه الأخيرة، وخرجت من غرفتي ودخلت على

"زينب" في غرفتها كانت تبحر في شبكة رقمية فرفعت رأسها إلي مستغربة دخولي عليها وهي تنظر إلي في سكون..
- المعذرة... لأول مرة تهينيني وتجعليني أشعر بأنني عضو مبتور من هذه العائلة... هذا مصير كل يتيم تركه والداه بلا أشقاء... أعتذر فسوف أغادركم إلى غير رجعة، وشكرا على ما منحتموني من شفقة أملاها عليكم العرف الاجتماعي...
وخرجت وقد أقفلت الباب بهدوء، ورجعت إلى غرفتي وما كدت أفتح حقيبتي وأتفحص بعض أشيائي حتى دخلت "زينب" ووقفت تنظر إلي وقد تخضبت ملامح وجهها بالشفقة والحزن. قالت وهي ترتعش ارتعاشة خفيفة:
- ماذا قلت؟!...
واحتضنتني من الخلف ولوت عنقي بيدها حتى تقابل وجهانا وقد اغرورقت عيناها بالدموع...
- لا.. لا يمكنك... ما علاقة رابطتك بأسرتك إذا غضبت أنا من تصرفاتك معي؟...
وكاد صوت بكائها المرتفع يفضح ما يجري في غرفتي.. فوضعت يدي على فمها وقربت وجهها من وجهي حتى لفحتني أنفاسها المعطرة الحارة..
- سيسمعونك.. طيب انتهى الموضوع...
ورفعت يدي عن فمها، فأخذت تتنهد بشدة ثم خرجت من الغرفة وأغلقت الباب وراءها... وخرجت بدوري متجها إلى موعد "هاوه" في منتزه "اسبيخات الكلب" على بعد خمسين كيلومترا من القرية..
قطعت التذكرة عند مدخل المنتزه وسرت حسب الإشارات المرصوفة بين الأشجار الطويلة إلى الغرفة التي حجزتها مسبقا بالهاتف، غرفة بيضاوية الشكل معزولة تحفها الأشجار من كل جهة، كأنها بيضة حمامة في عش من القش.. وفتحت الغرفة برقمها الألكتروني، فدخلت

لتتلقفني رائحة البخور والعطور.. وهناك في وسطها كانت "هاوه" تجلس بانتظاري حيث أدارت السرير آليا لتواجهني بابتسامة:
- مرحبا.. مرة أخرى تأخرت حتى عن موعد أنت الذي حددته... تأخرت ربع ساعة...
- هذا من سوء حظي..
وجلست محاولا السيطرة على الرعشة التي تفضح لهفتي، ومددت يدي أصب العصير في الكؤوس.
- بداية هل هذه نزوة عابرة منك، وسوف تنساني أو تهملني بعد انتهاء رغبتك الاستطلاعية كما يفعل الشبان مثلك؟...
- صدقيني لا أعرف.. ولا يمكنني السيطرة على المستقبل من هذه المسافة التي تفصلني عنه.. ولكن سليني عن الساعة التي أعيش فيها فأقول لك بأنها من اللحظات النادرة الحصول في حياتي، وهذا كل ما أضمنه لك...
- لقد صدقوا.. فهم يقولون إنك شخص بالغ الذكاء...
وتمددت إلى الوراء قليلا وهي تسحب نفسا عميقا من الهواء يدل على ارتياحها. ونظرت من نافذة الغرفة إلى الأشجار المتدلية الأغصان وأمضت هنيهة تتأمل كأنها تبحث عن اقتناص قرار حكيم... كان لباسها فضفاضا ورغم ذلك فتفاصيل جسمها تبدو من خلاله ويظهر تنسيقه الدقيق يغري الرجولة بالانغماس في بحيرة العسل هذه المتشكلة على نمط قالب جنية سحرية فاتنة...
- فيم تفكرين؟...
جددت ابتسامتها العذبة وهي تلتفت إلي:
- كل شيء.. فيك وعنك...
ونهضت متجهة إلى النافذة وأطلت منها على الخارج مثل الصورة في الإطار وقالت دون أن تلتفت إلي:

- أكاد أجزم بأن نهاية هذه العلاقة ستكون مأساوية بالنسبة لي.. فقد أخبرتني "زينب" بأنك على علاقة مع نصرانية تعمل معها، وأنك غررت بها حتى أعطتك كل شيء، ثم رميت بها مثلما ترمى القطعة الخربة في القمامة، متجاهلا قرابتك بها وموقعها منك، فكيف بي أنا!!.. "زينب" ربما أخطأت في تعليقها شماعة الأمل على عنصر القرابة، وتصرفت معك مراهنة على ذلك الأساس الذي سرعان ما يسقط تحت ثقل الواقع بعد أن تنكشف غيمة المراهقة الحالمة.
داخلني خجل صادق وخيبة أمل، فيبدو أن "زينب" لم تتحرك لشن هجوم اليوم إلا بعد أن عرفت كل شيء عن هذا الحب الجديد في حياتي، وأن شخصيتي الهوائية المتحركة تقطع آخر أمل على حلمها بالاستقرار العاطفي.. وهذا سر تخوف "هاوه" فهي الآن تخوض صراعا عنيفا مع ضميرها وكرامتها.. تريد أن توقف هذا الاندفاع عند حد لا يجعلها الرقم الثاني بعد "زينب" أو رقما آخر في متتالية نسائية يعبث بها شاب متهور شهواني.. يستغل امتيازاته العقلية والجسدية لإسقاط ضحاياه مثلما تستغل النار ضوءها للإيقاع بالفراشات الجميلة البريئة... وعادت لتجلس في مكانها..
- هل ستبقى صامتا إلى الأبد؟..
- لا.. عم تحبين الحديث؟.. هناك تفاصيل كثيرة يجب أن نبحثها...
- مثل ماذا؟
- شكل علاقتنا.
- العلاقة تحدد شكلها من تلقاء نفسها.. الحب لا يقبل الرسوم المسبقة.. ولا الأثواب المفصلة الجاهزة.. من جهتي جئت هنا وأنا أحبك لآخر قطرة في دمي، وقلبي يقول لي إنك لن تتخلى عني أبدا.. وعقلي يقول عكس ذلك.. المرأة أصلا تصدق قلبها وهذه آفة يا حبيبي...
- عنيت بشكل العلاقة سبل اللقاء.

- كلما أردت لقائي تكفيك الإشارة ليلا أو نهارا.. أسرتي محافظة جدا ولكننا في عصر مفتوح.. الآن لم يبق لي الكثير من الوقت...
- نلتقي غدا في نفس المكان إن شئت؟..
- لا نلتقي في ضاحية القرية على تلة "إجناون"..
- طيب.. قبلت ورضيت.. تفضلي حتى لا تتأخري...
- ليس بعد.. أبهذه السرعة تطردني؟
- تعرفين مشاعري لقد جئت هنا لأملأ بصري من رؤيتك.. وأنا على يقين من أن بوصلتك تلتقط اتجاهي تماما وتعرفه..
ابتسمت وهي تتمدد على ظهرها فوق السرير وترفع ركبتيها إلى أعلى مؤذنة باقترابي منها.. فأجلس بمحاذاة خصرها وقد أصبحت يدي قالبا لنهدها الساخن.. لفت ذراعيها حول عنقي وجذبتي إليها بقوة وهي تطبق بفمها على فمي بحرارة، كان قلبها يدق بسرعة وقوة وأنفاسها تصفر مخترقة سكون الغرفة، ألحس العرق المتصبب من جبينها وأتذوق طعمه الشهي المثير، مائل إلى الملوحة والحموضة قليلا.. هذا العرق يحمل جزءا هاما من خصوبة هذه الغادة... ثم انسلت من تحتي فجأة وانتصبت واقفة وهي ترتجف...
- إلى الغد.. سأسقط كما تريد.. ولكن غدا.
- لا أريد أكثر مما وجدت.. عودي قليلا.. ربع ساعة فقط؟..
تجلس متخوفة وتقبلني بحرارة وشهوة:
- الليل.. أبي مشكلة..
- ربع ساعة فقط.. أرجوك...
تقفز واقفة وتتخلص من ثوبها الفضفاض لتبقى شبه عارية إلا من "الشرت" الأبيض مثل الزبدة التي تحف منتصف التمرة وتفتح أزرار بنطالي وتنبطح علي بجنون وهي تلحس صدري ورقبتي وتمتص بشدة ذقني، وذراعاها يقبضان بقوة على عنقي، ثم ترخي إحدى قبضتيها وترجعها للوراء وجسمها يرتجف لتتخلص من "شورتها" وترميه إلى

الخلف مثلما تلقي الغيمة السوداء ببرق خافت.. بل ظهر وكأنه طائر يقفز من القفص..
- بهدوء فأنا عذراء.... خائفة يا حبيبي.. دعني أنا أضعه... تتأوه بصوت عال وتضغط جسمها على جسمي فأغيب في اللذة وأتركها تدلكني بجسمها اللين وقد أصبح كله فتحات لمنافذ الشهوة... ويعلو شخيرنا ونصمت لبرهة قبل أن نجلس متعانقين ونظل على تلك الحال لدقائق كأننا نتعاهد على البقاء أوفياء إلى الأبد.
قالت وهي ترتدي ملابسها:
- يكفيني هذا من الحياة.. ماذا أريد بعد هذه اللحظات.. كأنني لم أعش قبل هذه اللحظات... كثيرون اقتربوا مني ولامسوني، ولكن في جسمك سحر خاص.. مغناطيس لا يقاوم.. جاذبية من برمودا تحطم كل الهياكل.. مسكينة صديقتي "زينب" فهمت الآن حالتها النفسية.. ولكن أخبرني هل ستبيت عندهم؟
- إنه بيت عمي..
ونظرت إلي نظرة يتطاير منها الشرر وقالت:
- إياك.. نحن الفلان.. الدم عندنا مثل الماء.
- أنتم الفلان العرب الأصليون، وحماة الدين والمروءة.. هذا النهد يحمل تسعة آلاف سنة من الحضارة ولا يزال وشم اليمن ورائحتها تهب منه وتخترق أنفي محدثة إياي بأن كبرياء القرون الخضراء احتضنها وحافظ عليها.. وأنتم القبيلة الوحيدة التي لم تقبل الإهانة من أي دخيل مهما كان...
- هذا الإطراء الحضاري لن يجعلني أسامحك إن لمست "زينب".. وهي ستخبرني عن كل شيء...
- لك هذا...
- أما إن لم تعد راغبا بي يوما فما عليك إلا إخباري.
- لتقتليني؟..

تنفجر بضحكة كأنها نغمة الناي من رقتها:
- لا.. لأضع حدا لحياتي.
- كثير من النساء يصورن لعشاقهن أن نهايتهن عندما يفارقنهن.. ومع ذلك نجد الواحدة منكن وقد امتلأت بالأطفال من رجل آخر تحبه وتعبده وكأنها لم تعرف غيره..
- بعضهن كذلك.. والنفس البشرية في مد وجزر دائمين.. الساعة الرابعة غدا.. لا تتأخر؟...
قالت هذه الجملة وانسلت من الغرفة لتتركني في فراغ كبير فلي رغبة بأن أظل معها إلى الأبد.. وماذا يفصلني عنها سوى أن أزور أباها فيقرأ لي الفاتحة وأخرج متأبطا ذراعها وقد ملكتها إلى الأبد!.. ولتبق "تاتو" واللعين "رايت" ليواجها مصيرهما وحدهما.. سوف تجن لأنها تحبني قطعا.. ورسالتها الأخيرة تفضح غيرتها من "زينب" فكيف بها إذا رأت "هاوه" وجمالها الأسطوري.. إن "تاتو" بجانبها ستكون مثل الإناء الذي تلغ فيه الكلاب لا يثير الشهوة أبدا..
اتصلت بعمي لأعلمه بأنني سأبيت الليلة خارج البيت مع صديق لي، فهذه الغرفة تشدني إليها بما يشبه الطلاسم... وطلبت من إدارة المنتزه أن يحضروا لي وجبة العشاء.. و أخذت في تتبع محطات الأخبار ثم اخترت التفرج على أحد أفلام الفكاهة حتى وقت متأخر من الليل لأستيقظ في الثانية ظهرا على وجبة الغداء واستعد لموعد الرابعة..
وصلتني في هذا اليوم رسالة من "عبود" يقول فيها:
"أكتب لك من الغرفة رقم 9711 بسجن "الراعي" وهو سجن خصوصي لرجل أعمال.. لقد صدر الحكم علي بالسجن لمدة سبع سنوات مع الأشغال الشاقة.. وأنا الآن أعمل في إعادة برمجة الأجهزة الإلكترونية لصالح زبائن السجن.. هل تعلم ماذا أريد الآن.. مجرد رؤية قرص الشمس وهي تشرق.. أو أطفالي.. أطفالي يا صاحبي... صورتهم لا تفارق مخيلتي.. وقد تلقيت أمس الأول رسالة من طفلي

الأكبر يخبرني فيها بأنه نجح متفوقا وأنه زار أمه في دار الحضانة، وقال لي إنه يسامحني ويتفهم دوافعي وأنه يفهم وضعية والدته وسوف يكون برا بها.. هناك شيء هام وهو أن إحدى العاملات في مكتب الاستقبال بالسجن عرضت علي الزواج منها وهي امرأة في الأربعين من عمرها وقد يخدمني الزواج بها فظاهرها مهذبة وطاهرة مع أن أملي في النساء قد خاب إلا أن الزواج من هذه السيدة ربما يخرجني بأسرع وقت ممكن من هذه القوقعة الكئيبة... ماذا فعلت مع "تاتو".. سأسر لك بأنها قالت لي يوما بأنها لا تحب غيرك أبدا.. زارني هنا "عياش"، وقدم لي الكثير من المال جزاه الله خيرا.. كما راسلتني "تاتو" كثيرا وكذلك أصدقائي وجمعية الدفاع عن السجناء.. وأعرف أنك ستزورني فأنا متلهف لرؤيتك جدا... وأتمنى أن أخرج من هذا السجن وأجدك تداعب ولدك من "تاتو" بل أولادك.. لا تتخوف من الزواج منها فهي امرأة مختلفة لا يتكرر مثلها إلا كل قرن لتجدد للأنوثة الحقيقية دينها..".

وكتبت لـ"عبود" ردا سريعا على رسالته:

" قد يكون مفاجئا لك لو علمت أن "تاتو" لم تعد تهمني كامرأة فقد دخلت حياتي جنية جديدة اسمها "هاوه" صورتها في الإطار.. وأعتقد أنني سأتزوجها، أليست جميلة؟!.. ما رأيك فيها هل تزن "تاتو" شعرة منها؟... أما المرأة التي ذكرت فلا تتأخر في الزواج منها على الأقل تتمتع بها في هذه السنوات السبع العجاف.. أطفالك أطفالي وقد بعثت لهم بما يكفيهم وزيادة، وأنا أزورهم باستمرار.. إطمئن فأنت رجل مؤمن وقد سبق وأن تعرضت لهزات ما كنت لتخرج منها لولا إرادتك وتصميمك على البقاء والانتصار.. كن شجاعا كما عهدتك ولا تسمح لظلمات السجن بأن تتسرب لنفسك المشرقة.. حاول أن تتفوق في البرمجيات فمستقبلها العملي أفضل... سوف أزورك قريبا.. وقبل ذلك سنتحاور كثيرا ومباشرة بالشبكة الرقمية...".

وحان موعد "هاوه" فأسرعت إلى السيارة و أطلقت لها العنان باتجاه تلة "إجناون" الغربية التي تكسوها الخضرة وتغطيها غابة الأرز... وجدتها وهي متكئة على سجادة تركية أصلية فتصورتها مثل كلمة منقوشة بالخط الفارسي على رقعة من جلد الغزال.. ابتسمت وهي تستجمع أنوثتها لتشتت صوابي، واحتضنتني برقة.

- لماذا تبيت في المنتزه.. هل تخاف من مواجهة "زينب"؟.. أنا أخبرتها بلقائنا وكادت تجن وأمضت نصف ساعة تشتمني وتتوعدني بالقتل، وقالت إنها ستبلغ أبي بالموضوع.. هذه المرأة ستجن ولا بد أن تضع لها حدا قبل أن تدخلنا في إعصار من المشاكل ينتزعنا من جذورنا..

- وما هو الحل كما ترين؟

- صعب.. المرأة في وضعيتها بصراحة قد تقدم على الانتحار أو القتل، وأفضل الحلول أن تجن...

- مشكلة.. مشكلة..

- هل تعلم أنك دفعتها لتعاطي المخدرات؟... هذا من مشاكلكم أنتم الرجال.. تلقون ببذرة الحب في قلب امرأة متصورين أنه أرض خراب لا يصيبها وابل أو طل...

- ولكن ماذا سأفعل؟..

- والله مشكلة... ولا تعكر علينا صفو هذا اللقاء.. قلت بالأمس إنني بوصلة.. هذا معناه أنك شمال والشمال مشكلته في البرودة..

وضحكت عن أسنانها البالغة البياض والرقة ليهتز صدرها النافر وتضمحل لغة الكلام أمام هذا الجسد النابض بالشهوة الصارخة والإغراء..

- دعني أغرس هذا الوتد بيدي..

وأمسكت به وحكته على شعر عانتها النابية مثل ربوة بين تلين حتى تحجر جلدي من الانفعال وأدخلته شيئا فشيئا وهي تمتصه بشفرتيها كما تمتص إصبع الشوكولاته...
- إبق هكذا..
وانطلقت تتأوه بصوت عال... وتصرخ من اللذة وتنتف شعر رأسي..
- آه.. لو علمتم أنتم الرجال ما فينا من شهوة لما تحركتم للبحث عنا...
آه.. اضربني.. اصفعني بيدك.. أرجوك.. اصفعني...
وغرست أسنانها في رقبتي حتى سال الدم على صدرها وهي تشخر...
ثم هدأ كل شيء وجلسنا عاريين يعبث كلانا بأعضاء الآخر في لطف ومن حين لآخر تشتعل نار الشهوة فيطفئ بعضنا البعض.
- هل تشعر أنني مثل الكلبة الآن وأنا أمسك ذيلك بهذه القوة؟...
- لم ألاق يوما في حياتي من امرأة مثل اللذة التي ألاقيها منك رغم أنك مبتدئة..
- عندما تشفى جراحي الداخلية سأريك.
- المتعة الحقيقية في النظر إلى جسمك هذا.. إلى هتين الساقين وهذين الفخذين وهذه السرة وهذين النهدين الممتلئين وهذا الجيد.. والعيون.. والثغر..
- ماذا ستفعل مع "زينب"؟
- لا أعرف...
- سأخبرك بشيء.. يجب أن تكون على حذر، فقد أخبرت أباها بأنك مارست معها، ومنذ الصبح وهم يحاولون الاتصال بك، ولكنني دخلت على شيفرتك ومنعت رقمهم من الاتصال بك حتى لا تؤخذ في غرة.
- ولماذا لم تخبريني أولا بهذا؟!..
- لئلا أفسد علينا كل المتعة التي حظينا بها.
جلست مكتئبا، وقد انسدت علي آفاق التفكير وبدت آفاق الحلول أصغر من ذرة ساقطة في البحر ليلا على أعمى... وكان القرار بأن لا أهرب،

فعلي مواجهة الأمر الواقع.. كيف سأواجه عمي بكل صرامته وزوجته وولده محمد؟! وما هي تصرفاتهم؟ وكيف أواجه "زينب" نفسها؟. ولكن اشتدي أزمة تنفرجي.. وتوجهت إلى السيارة وأخرجت حفاظة الماء وتطهرت و"هاوه" تنظر باستغراب وهي متكئة وقد كساها العري ثوب الإغراء اللامتناهي.. واتصلت بعمي الذي أمرني بأن أنتظره في البيت.. كانت عباراته جافة كالخشب ومقتضبة.

- سيقتلونك.. لن تذهب إليهم..

- لا بد، فهذه القضية لا تحتمل غير المواجهة..

- عمك متحجر وكذلك أبناؤه.. وأنت أمل الأمة.. حدد مكانا تلجأ إليه ريثما يهدؤون، وسألحق بك في أي مكان تذهب إليه.

أشعلت محرك السيارة وانطلقت إلى بيت عمي حيث أخبرني الخادم وهو يتفرس في باستغراب أنهم جميعا توجهوا إلى المستشفى لأن "زينب" مريضة... وفي المستشفى دخلت عليهم وهم مجتمعون حول الممرضة بانتظار خروج الطبيب إليهم من فحص "زينب".. كانت وجوههم قد تغيرت تماما وتبدلت إلى قطع كبيرة من الفحم الحجري الجاف المنظر.. تفرسوا في وكأنهم لا يصدقون حضوري.. شعرت بالتبلد والإحراج، فبادرت بالجلوس على أقرب مقعد، كانوا لا يزالون ينظرون إلي غير مصدقين حضوري إليهم وبعد دقائق من الصمت المرعب تقدم إلي عمي ووقف كالجبل أمامي ونظر إلي بقسوة حديدية ثم رفع يده في الهواء مثل الرافعة وهوى بها على خدي فسقطت عن المقعد أرضا والممرضة والطبيب الذان خرجا صحبة "زينب" يفغران أفواههما كأنهما لا يصدقان ما يجري.. وتسمر الجميع في أماكنهم مثل الأشجار اليابسة، فوقفت بصعوبة، وجلست مرة أخرى على المقعد، فيما بادرت الممرضة بمسح الدم الجاري من فمي وتطهيره..

- سأعطيها هذه الحقنة المهدئة على أن تأخذها كل يوم بكمية أقل.

لفظ الطبيب هذه الجملة فحول عمي بصره إلى زوجته وولده ثم تأبط ذراع "زينب" وخرجوا من الباب تاركين إياي في مواجهة جحيم حقيقي من العذاب.
ابتسم الطبيب وقال لي:
- عليك أن تتحمل.. فقد جرحت كرامتهم.. وحطمت أملهم.
ودخل إلى غرفته، فجلست الممرضة على مقعدها وابتسمت بحياء وهي تظهر الشفقة وقالت:
- أنا مستعدة لاستضافتك في بيتي والسعي للصلح بينك وبين عمك.. كان يجب أن يعاملوك بما يليق بمقامك.
شعرت بأنني وحيد، فقد تركني أهلي مثل اللقيط وخرجوا، كنت أفضل أن يقتلوني على أن يتركوني في هذه الوضعية.. وقطع الطبيب تفكيري وهو يخرج حاملا حقيبته ويقول للممرضة:
- سأعود بعد أن أمر على بعض المرضى في بيوتهم.
وأعدت الممرضة كأسين من القهوة على عجل، ووضعت مقعدها أمامي وجلست.. كانت امرأة في الثلاثينيات من عمرها ممتلئة باللحم وتنظر إلي بعاطفة ظاهرة.
- هل ستذهب معي بعد وقت الدوام؟ أنا أسكن مع والدتي وحدنا.. لم يبق غير ساعة واحدة.. الطبيب لن يعود.. كل يوم يقول إنه سيعود ولا يعود لكثرة مشاكل مرضاه..
- شكرا على لطفك.. لكنني سأسافر الليلة إلى المجرية.
- لا، أرجوك لا تسافر.. وتترك أهلك في هذه الوضعية.. فيجب أن تسوي المشكلة قبل ذهابك..
- لن يقبلوا بي بعد اليوم..
اقتربت أكثر مني وهي مضطربة.
- هل أنت بحاجة لبعض المال...
- لدي المال..

- أرجوك قل كم تريد؟ فأنا لدي المال..
- شكرا على حسن أخلاقك وعطفك...
- لا بد أن تأخذ مني بعض المال.
- أبدا، لأنني لست بحاجة إليه..

اقتربت إلي أكثر وازدادت اضطرابا حتى ظننت أنها تهم بي وهو الظن الذي صدق بعد قليل عندما أحكمت إغلاق الباب علينا وطوقتني بذراعيها وشرعت في تقبيلي وسحبتني إلى داخل مكتب الطبيب الوثير وأجلستني على سجادة كبيرة تتوسطه وشرعت في نزع ملابسها عن جسم مكتنز باللحم الأبيض.. نظرت إلى احمرار خفيف بين فخيها من فعل الاحتكاك بينهما ودبت في جسمي الحرارة وهي تنزع ملابسي الداخلية وتشدني فوقها مرتجفة تتأوه وقد رفعت قدميها في الهواء... وما كدنا نلبس ثيابنا حتى سمعنا طارقا يطرق على الباب فجن جنونها، وبادرنا بالخروج إلى مكتبها وفتحت الباب بعد أن جلست على أحد المقاعد، فدخل شاب وسأل عن الطبيب، وبعد أن أجابته خرج وتركنا نستعيد بعض أنفاسنا.

- هل ستذهب معي إلى منزلي؟
- سأسافر الليلة.
- ومتى نلتقي؟
- ليس في هذه المدينة
- هات عنوانك وسوف ننسق فيما بعد؟...

سجلت لها عنواني في هاتفها، وخرجت لأجلس لفترة طويلة في سيارتي مشتت التفكير، ثم قررت التوجه إلى بيت "حميدو باه"، سيكون قد علم، ولكن منظر "هاوه" قد يخفف عني بعض ما أنا فيه من هموم. واستقبلني "باه" بترحاب كبير وجلس بالقرب مني وهو يضع يده على كتفي بحنان:

- علمت بالأمر وأظن أن تلك الطفلة المدللة قد زورت القضية لتبلغ مأربها.. مهما يكن سوف أسوي الأمر.. ستسهر ابنتي على رعايتك لأني مضطر للخروج إلى اجتماع خاص.. ارتح فأنت في بيتك..
وابتسم وخرج فيما كانت "هاوه" تدخل بصينية الشراب وهي تتصنع البراءة والاستغراب أمام والدها.
- الحمد لله.. إنني محظوظة.. فالصيد يأتي إلى جحري بالرغم منه...
وأطلقت ضحكتها التي تشبه نغمات الناي عندما تنساب بها النسمات فوق المروج الخضراء، ثم انتبهت لجرح فمي فتفرسته متألمة مستفسرة...
- صفعة من عمي.. هي كل ما قابلني به...
كنت منهكا نفسيا وجسميا.. فأبكرت برغبتي في النوم والأفكار تمد لي دوحها.. لماذا أنا أناني لهذه الدرجة؟.. فلم أحسب إلا خسارتي، وتجاهلت خسارة عمي في ابنته الوحيدة ومصيرها الذي آلت إليه: شابة صغيرة تم اغتصابها، ودفعها إلى طريق المخدرات؛ وسمعة تم تلطيخها، وخيبة أمل في رجاء طالما انتظره.. كان ينتظر أن يزفها إلي عروسا، وأن أنجح في عملي، وفجأة تنقلب الصورة إلى هذه السوداوية..!؟.. أي ورطة وضعتهم فيها!.. ونمت بعمق بعد هذا اليوم التاريخي في حياتي.. نوم طويل استمر من العاشرة ليلا حتى مساء الغد، عندما استيقظت على ابتسامة "باه" وهو يجلس إلى جانب المائدة العامرة بأنواع الأطعمة، وكنت جائعا، فأكلت مثل الوحش الكاسر حتى شبعت وشربت الشاي الموريتاني الأصيل وأعطيت نظرة الاستئذان لمضيفي من أجل البدء بما لديه من حديث، فاليوم قد يكون حفل بالكثير من الأحداث.. ابتسم "باه" بوداعة الرجل التقي، وقال:
- عدت قبل قليل، ولذلك لم أتصل بعمك حتى الآن.. لكنني سأفعل بعد إذنك...

- لا تحدثه في شأني، فقد وصلت علاقتنا إلى طريق مسدود.. أعرف طبيعة عمي جيدا..
- أنت رجل من أهل الإيمان.. والمسلم يتعرض للأخطاء ولكن عليه السعي لإصلاحها... صدقني ليس هناك في هذا الكون الكبير المترامي الأطراف ما يسد فراغ القرابة، وديننا يحرم قطع صلة الرحم... لدي اقتراح يجب أن نذهب إليهم سوية.. لن يستطيع أن يرد مسعاي خائبا وسوف يسامحك.

وبعد جدال طويل خضعت لضغوط "باه" فركبت إلى جانبه في سيارته وتوجهنا إلى بيت عمي، والقنوط يختم أبواب الأمل بالشمع الأحمر في وجهي، إلا أن إصرار "باه" على إتمام هذه المبادرة لم يترك لي فرصة للتراجع.. وتراءى البيت من بعيد وكأن الكآبة قد غيرت لونه وحتى شكله، فزواياه حادة أكثر مما كنت أرى، وشجرة النخل المنتصبة أمامه تبدو وكأنها شاخت.. وفتح الخادم الباب ومرة أخرى فغر فاه مستغربا ودعانا للدخول وسار أمامنا في الممر الضيق لحديقة المنزل حتى وصلنا المقاعد المرصوفة في الجلسة العائلية في حديقة المنزل، حيث ظهر عمي يجلس على كرسيه الخشبي وكأنه صنم من حجارة الجرانيت القاسية، مثبتا نظره من تحت شيب حواجبه مثل الأسد الجريح.. مد يده وصافح "باه" محاولا الابتسام، فيما صافحني بيد خشبية خالية من أي مشاعر، وأشار إلينا بالجلوس، وأحضر الخادم واجب الضيافة و"باه" يبذل قصارى جهده مستنجدا بما لديه من بلاغة، في محاولة لرأب صدع هذا الرجل الزجاجي الكرامة المنكسرة من الأعماق...

- انتهت مهمتك يا "باه" وستسامحني الآن.. لأسوي مشكلتي على طريقتي الخاصة..

قال هذه الكلمة بفتور، فنهض "باه" مستبشرا وودعنا بحرارة وخرج ليتركنا جالسين كأننا لا نصدق ما نراه، وأطل علينا من نافذة الغرفة

المقابلة وجه محمد و"زينب" ووالدتهما ينظرون إلينا مستغربين، فنهرهم عمي ليتراجعوا إلى الوراء ويختفوا في جوف الغرفة، وبعد دقائق كانت تمر كالسكاكين في الأحشاء نهض واقفا وقال لي:

- اتبعني.

وتبعته حتى دخل بي في غرفة معزولة في البيت كانت مخصصة للدروس الخصوصية لنا ونحن أطفال صغار، فأجلسني على أحد المقاعد وخرج ليعود بعد لحظات وهو يحمل في يده حبلاً من البلاستيك قام بشد يدي من وراء ظهري بشدة ورفعني لأسقط على أرضية الغرفة المبلطة بالسيراميك، ثم انهال علي بسوط من أسلاك الكهرباء يضرب بدون رحمة ومن كل ناحية في جسدي.. كان السلك يدخل في جلدي مثل السكاكين الساخنة والدم ينزف من كامل أعضائي، فأيقنت أنها النهاية.. واستعدت تفكيري من عاصفة الألم التي تلبد جسدي وتستمر بالهطول.. لقد قرر عمي أن يضربني حتى الموت ويعرف كيف يواري جثتي وكأن شيئا لم يحصل.. وامتلأت عيناي بالدم السائل من رأسي وجبهتي وغبت عن الوعي وكان آخر ما أسمعه هو صوت الصدى الذي تردده الغرفة لضربات عمي بالسوط...

استيقظت في منتصف الليل على المجامر المشتعلة في جسمي من كل زاوية فيه، وانتابتني نوبة سعال شديد ورجفة وبدأت أتذكر مكان وجودي وكانت برودة سطح سيراميك الغرفة تزيد جروحي ألما والظلام يحفني من كل جانب ويداي لا تزالان مقيدتين.. وحاولت بصعوبة التقلب على ظهري لكن شظايا يدي المكسورة غاصت أكثر في كتفي فصرخت من الألم حتى رددت الغرفة صرختي وكأنها هي الأخرى تتألم، فأخذت أكرر بصوت ضعيف: "الله.. الله.."، وسمعت صوت خطوات قادمة ثم اشتعل ضوء الغرفة لأرى صورة عمي بصعوبة وكأن بيني وبينه كيسا من النايلون، وكأن وجهه ازداد غضبا وتجهما، فنظرت إليه في بلاهة وفزع، وهو يرفع السوط للحظات ثم

يلقيه أرضا، ويقترب مني ويفك وثاقي ويحملني بين ذراعيه وأنا أكاد أفقد صوابي من الألم ويدخل بي في أحد الصالونات ووضعني على كرسي وأسند رأسي إلى الوراء وهو ينادي الخادم:
- احضر الضمادات.
ودخل الخادم مع دخول بقية أفراد العائلة ينظرون إلي بعيونهم الحمراء واخزين جراحاتي بإبر أخرى لا تقل حدة عن ذلك السوط.
قال الخادم وهو يرفع يدي وينظر إلى عمي:
- إنها مكسورة يا سيدي..
وجلس عمي يبكي مثل الطفل الصغير، فضج الصالون بالبكاء والنشيج، كلهم بكى إلا أنا، فقد كنت متألما لدرجة لئيمة حتى بالدموع، وأقبلوا على عمي يسندونه ويخرجون به لأبقى وحيدا في مواجهة الخادم الذي أحضر كأسا من الحليب وحاول أن يسقيني بصعوبة، قبل أن يدخل عمي بصحبة الطبيب الذي باشر بفحص جراحي والتفت إلى عمي وقال:
- يجب أن يذهب إلى المستشفي، لقد فقد الكثير من الدم..
- لا.. إلا هذه..! داوه هنا أو آتي بطبيب آخر..
- طيب سأحاول، سأعطيه مهدئا للألم لأنه يتألم كثيرا وسأضع الجبيرة على يده ثم أعيده كل يوم إلى أن يشفي، يجب أن يأكل جيدا ويرتاح حتى يتمكن جسمه من تعويض ما فقده..
وبعد أن استل الطبيب الحقنة من ذراعي شعرت أن جسمي يتخدر فأسلمت نفسي للنوم، والأسرة تحف بي والدموع تهطل بغزارة من عيونهم...

***

أيقظني الطبيب بعد الظهر، وباشر الإشراف على أكلي حتى شبعت ثم ناولني الأدوية وخرج بصحبة عمي لأبقى مع أفراد العائلة ينظرون إلي بحزن وشفقة وأسف وأتشاغل عنهم بالنظر إلى سقف الصالون.
- والله ما لنا في الأمر أي دخل، فعمك كاد يجن ويقتلنا جميعا بما فعله بك.. أنت تعرف أنك أغلى علي من أبنائي.
وأجهشت بالبكاء، ولم تستطع أن تواصل حديثها، فدخل عمي وصرخ فيهم:
- اخرجوا.. لعنة الله عليكم جميعا أنتم سبب هذا البلاء.
وسقط بالقرب مني وهو يبكي بألم، فمددت يدي وربت بها على كتفه، فجلس ينظر إلي وعيناه تغرورقان من الدمع..
- يكفي من عذابي أنني أغمضت عيني فجر اليوم لمدة خمس دقائق فزارني والدك في النوم ونظر إلي بعيون تلمع كالسيوف وهو يقول: "أهكذا تحفظ الأمانة.. وتخلفني فيه؟... ثم استفيقت فزعا.." .. سامحني يا بني، إن ضربتك فأنا والدك.. إن لم تسامحني سأعتزل الحياة... سامحني!...
وأجهش كلانا بالبكاء، فدخل الخادم يحمل الشاي ووضع كأسين ساخنتين وهو يكاد يواري دموعه في تلال حزنه الصاخبة، لقد فتحت عيني على هذا الخادم يعمل في بيتنا ورغم تقاعد عمي فهو لم يتقاعد ويبدو أنه سيبقى في الخدمة إلى النهاية..
- سامحتك.. بالعكس سامحني.. فقط أطلب منك السماح لي بالمغادرة لأنني أشعر برغبة جامحة في الانفراد بنفسي والابتعاد عن الناس لفترة.

وخرج عمي يبكي بصوت عال وصوت الأسرة يتسابقون إليه ويهدئونه، وبعد لحظات دخلوا علي وجلسوا محيطين بي، قالت زينب وهي تمسح دمعتها الماسية فوق خدها الذهبي:
- لا تقتل عمك فقد أصبح عجوزا ولا يتحمل أكثر مما يحدث.. إنك تهلكنا جميعا إذا اعتزمت الرحيل.
وأضاف محمد:
- سينتحر الجميع إذا غادرتهم في هذه الحالة.. كن على يقين من ذلك.
- لن أغادر..
تنفس الجميع الصعداء وخرجوا ليبشروا عمي بهذا القرار، فعاد الجميع وجلسوا حولي صامتين..
- كنت مرة يا عمي أتجول بأحد أسواق الدار البيضاء فأمسكت بذراعي عجوز في السبعين من عمرها وبقيت لعدة لحظات تنظر إلي حتى تجمهر الناس من حولنا مذهولين وقالت لي:
- عرفتك.. أنت الشاب الذي وضع اللحن الذي رقصت عليه النملة.
وانفجر الجميع ضاحكين وكأنهم تنفسوا الصعداء وهم يمسحون بقايا دموعهم.. فقالت "زينب":
- أتضحكنا وأنت على هذه الحال؟!..
وخرجت متوترة تغالب البكاء ثم أطبق الصمت أفقه الثقيل على الجو حتى كدنا نصاب بالاختناق، ثم دخل البواب يستأذن في دخول آل "باه" الذين دخلوا وحيونا بحرارة..
- ليس هكذا وعدتني؟..
- لا تزدني ألما يا "باه"...
كانت "هاوه" تسترق النظر إلى جراحاتي المنتشرة في جسمي وهي تخفي ألمها وتأثرها لحالي، ثم حول "باه" مجرى الحديث:

- لقد نفذوا اليوم عملية تاريخية لا تقل شأنا عن عملية الحادي عشر من سبتمبر 2001، هل قرأت عن تلك الهزة التي حدثت في ذلك اليوم وغيرت مجرى التاريخ؟!..
- وماذا فعلوا؟. لم أتابع الأخبار!..
- لقد حطموا المدينة التي تختزن المعلومات العالمية...
كان النبأ خطيرا، فهذه المدينة تضم معلومات وأسرار عالم الشركات ومراكز الأبحاث.. وسيكون العالم على موعد مع تحول جديد في مساره... يشبه ذلك التحول الذي حدث بعد طوفان نوح... واستأذن آل "باه" بالانصراف فشيعهم أفراد الأسرة إلى الباب وعادوا إلي وتحدثنا لفترة عن تداعيات وتبعات حدث تفجير المدينة التي تعتبر أكبر خزان عالمي للمعلومات، والمسار الجديد الذي سيتخذه الصراع على ظهر هذه الأرض المتعبة التي تبخر نصفها على شكل غبار للمعارك المستمرة.. وختم عمي الجلسة بقوله:
- سنذهب للنوم وسوف تسهر على رعايتك أختك.
أعرف أن الجميع لن ينام، وسوف يستسلمون لمشاعرهم أو لشبكات الأخبار التي تبث سيلا من المعلومات عن حادث التفجير، وكانت "زينب" تنظر إلي بشفقة بادية:
- آه لو علمت كم تعذبت أنا ووالدتي ونحن نسمع صوت ذلك السوط اللعين وهو يضربك؟..
- وماذا في الأمر.. والد يضرب ولده!..
قلت هذه الجملة لتكون بمثابة الضمادة التي تغطي بشاعة الجرح.. فابتسمت "زينب" مستعيدة بعضا من جمالها الروحي...
كانت الرسائل الألكترونية تتوارد على هاتفي النقال بعضها من "تاتو" والبعض الآخر من العمال ورسالتان من "عبود" السجين، وأخرى من "مريامه" تحدثت فيها عن معاناتها من فقدان الأطفال وتتحدث فيها عما جرى وكأنها تبرر لي موقفها.." أكثر من مرة قلت لهذا الرجل

إنني لا أحبه ولا أصلح لـه.. ومـع ذلـك ظـل يصـر علـى الاحتفـاظ بـي متجاهلا كل ما أكنه له من البغض والكراهيـة.. حتـى رائحتـه النتنـة لا تفـارق أنفـي، عنـدما أنـام معـه يخيـل لـي أن خشـبة يابسـة ثقيلـة فـوق جسمي.. صارحته مرات ولكنـه لـم يـتعظ، حتـى انتهـى بـه المـآل إلـى جريمة قتل بشعة.. أسكن هنا تحـت رعايـة جمعيـة إعـادة التأهيـل ولـي رغبة عارمة بأن أراكم فردا فردا.. وأن أعود إلى ذلـك المخـيم بـالرغم من فقدانه للحبيب وللعهد الذي ولى إلى الأبد..".

أما رسالة "تاتو"، فقد كانـت أكثـر مفاجـأة.. بـدأتها وهـي تجلـس تحـت الخيمة ضـاحكة تلـف خصـلات شـعرها بيـديها إلـى الـوراء.. "علمـت بالشجار الذي حدث بينك وبين عمـك، وعلمـت بنزهاتـك مـع "هـاوه"، وحتى نزوتك الصغيرة مع سكرتيرة ذلك الطبيب.. كل شيء علمت به، وأشـعر ببـالغ الأسـف، لأن عطلتـك تحولـت إلـى أعطـال متتاليـة... مسرحية اتراجيدية.. وكنت أتمنى لو أننـي كنـت بجانبـك لكننـي أخـاف أهلك ولا أستطيع أيضا أن أغضب "رايت" بعد الغضـب الـذي سـببته له، والـذي كـدت لا أصـالحه بعـده إلا بجهـد كبيـر بذلتـه علـى مختلـف الأصعدة.. ولكنني سأنتقم منك عندما تعود وفي الوقت المناسـب.. علـى فكرة، أسرتي ستغادر يوم غد في الصباح البـاكر وسـوف يغـادر معهـم "رايت"، فأرجو أن لا تتأخر عنـي، لأننـي لا أطيـق الوحـدة كثيـرا ولا يمكنني القيام بالعمل بمفردي...".

ليست "تاتو" من تحسب أنفاسي أو تتجسس علي، بـل مركـز الأبحـاث في كندا هو الذي يتابعني بهذه الدقة ويحصي عدد المرات التـي فكـرت فيها بشيء معين، وهكذا وافوا "تاتو" بتقريـر مفصـل عـن كـل خطـوة خطوتها بعدها.. لماذا يفعلون ذلك؟! أليبعـدوها عاطفيـا عنـي؟ أم لأمـر آخر لا أعرفه؟!.

كانت رسالة "عبود" هي الأكثر طرافـة بـالرغم مـن أنهـا صـادرة مـن ظلمات السجن ومن نفس بشرية محطمة، فقد أخبرني فيها بزواجه مـن

عاملة السجن تلك وكيف أنها بارة به وتحبه إلى حد الجنون، وكدليل على حبها له فقد كتبت نصف أملاكها باسمه وسعت عند إدارة السجن لتوفير ما أمكن من وسائل الراحة والترفيه داخل السجن لزوجها.."لم أفكر يوما بأن أحصل على امرأة ودود مثل هذه السيدة... أظن افتقادها للجنس لفترة طويلة جعلها قعيدة عاطفتها ورغبتها، إنها تبيت معي كل ليلة وتزورني كل دقيقة أثناء العمل وتوفر لي الطعام الخاص، وتشعرني بأنني زوج حقيقي يستحق كل هذه العناية.. وأنا أبالغ في اللطف بها، وإشعارها بأن الأمر لا يقتصر على فترة السجن، بل أقسمت لها أن يوم عرسنا الحقيقي هو يوم خروجي من السجن..".

وكانت رسائل العمال لا تتجاوز عبارات الوحشة والسؤال عن موعد عودتي.. وبدا لي الوضع غامضا إلى حد ما.. فأجزاء اللوحة الأسرية التي أشرفت على رسمها تفككت وطار كل لون على حدة وأصبحت بعض الألوان خارج الإطار نهائيا..وتتضاعف جراحاتي النفسية أكثر وتؤلمني مثل هذه اليد التي لا تزال شظاياها مضغوطة بالجبس، فهل أتمكن يوما من أن أكون جبسا يعيد الأشياء بعد انكسارها؟.. وأغمض عيني في محاولة استراق النوم من مخالب الجراح، وأتغاضى عن نظرات "زينب" المليئة بالحنان والشفقة والهواجس.

وأفتح عيني على مربع الضوء المتسرب من الشمس من خلال النافذة والأسرة تجتمع من حولي مع الطبيب الذي يبتسم قائلا:

- مساء الخير.. كفاك نوما.. ها .. جيد! النبض طبيعي، وحالتك تتحسن والحمد لله.. لقد شفيت تقريبا...

- هل نعطيه الأكل قبل الدواء؟

- طبعا.. والأفضل أن يخرج في جولة هذا المساء ويتمشى ما أمكن...

تدخل عمي والبهجة تشع من أسارير وجهه:

- نعم.. سأصحبه في جولة...

خرج الطبيب وبدأت تناول الطعام والأدوية ثم شربنا الشاي في جلسة جماعية يظللها الشعور بتأنيب الضمير من طرفنا جميعا.. إحساس لا يخفى.. والنفس البشرية أكثر وضوحا من المرايا.. لكن هذه القدرة العجيبة على تجاهل الصور الواضحة هي المعين الوحيد على تخطي المواقف المحرجة... ووقفت مستويا على رجلي وعمي يتأبط ذراعي وسط فرحة الأسرة بهذا المشهد.

انطلق عمي يقود السيارة باتجاه حديقته حيث جلسنا على العشب نرتشف الشاي، وهو يحكي لي عن بعض الظروف القاسية التي تلقاها في حياته، ناظرا إلى الأفق مثل الفيلسوف الحالم، ثم التفت إلي والدموع تملأ عينيه وقال:

- اسمع بني.. أنا على علم بأنك سوف تصمم حياتك الخاصة على ذوقك وما كنت لأتدخل فيها أبدا ولن أتدخل أيضا فيها... إلا أنني متألم جدا لما حدث وضميري لا يزال يؤنبني، لذلك أرجوك يا ابن أخي وقرة عيني أن تلبي لي طلبا أخيرا.

- وما هو؟

- "زينب" ابنتي وهي راغبة فيك وأنت أيضا تكن لها بعض الرغبة لذلك فإني أزوجها لك على أن لا تقيدك عن أي زواج أو ارتباط مع أخرى ترغب فيها... هذا هو رجائي.

- عمي...

وتوقفت عن الكلام قبل أن أتم ما كنت أريد قوله لأنني أشعر بالرجل ينهار ما لم ير أن نفسي خلت من بقايا الحادثة الأليمة... وعدنا إلى المنزل مع الغروب حيث اجتمعنا في حديقة المنزل على المائدة وليفاجئ عمي الحضور بقوله:

- لقد زوجت "زينب" لابن أخي على أن يفعل بها ما يشاء ويتزوج عليها من يشاء وأن لا تتدخل في حياته الخاصة.

وصمت الجميع، وتوقفوا عن الأكل لبرهة، وهم يتبادلون النظرات مستغربين خلفية هذا القرار الخطير.. ثم واصلوا الأكل صامتين.. إلى أن رفع الخادم المائدة وجاء بالشاي.

- مالكم لا تتكلمون؟

ردت زوجته وقد علا وجهها غضب مكتوم:

- وفيم نتكلم؟..

- في أي شيء إلا في القرار الذي اتخذته.

وعاد الصمت مرة أخرى ليفقس بيوضه على أفواه الجميع.. ثم استأذنت للذهاب إلى غرفتي فاصطحبتني إليها زوجة عمي وعندما جلست على السرير انحنت علي تقبلني وهي تمسح دموعها:

- رجاء بني كن لطيفا معها.. إنها وحيدتي.. حاول أن تتصنع أمامها قليلا من الاهتمام بها ثم افعل ما تشاء كما قال عمك.. وضغطت بشدة على يدي قبل أن تنسل خارجة من الباب..

بدأت أتفرج على شبكات الأخبار ومستجدات العالم، سيل من المعلومات المتدفقة مثل الشلال الجارف من مشارق الأرض ومغاربها وباطنها وسمائها... ودخل عمي ليتابع هو الأخبار معي قبل أن تطل زينب برأسها من الباب فينهرها عمي:

- ارجعي لتدخلي بكامل زينتك على زوجك.

وخرج دون أن ينبس بذرية الشفاه... ودخلت زينب بعد ساعة في قمة أنوثتها وجمالها وجلست بجانبي ووضعت يدها على صدري وقالت:

- أنا تحت تصرفك..

قالتها بلهجة تنم عن لا مبالاتها بما قد يؤول إليه الأمر وصمتت لفترة قبل أن تردف:

- هل هذا منك أو من والدي؟

- والدك.

وعادت لصمتها ولا مبالاتها وهي تنظر إلى الشاشة وما تبثه، وكان كلانا يفضل الحديث والتعليق على ما نشاهده لا عما سيدور بيننا من مستقبل حتى وقت متأخر من الليل حين تمددت زينب بجانبي وأغمضت عينيها وهي تضع يدها على جنبي والنعاس يغالبها فربت بهدوء على يدها وأسلمت نفسي للنوم.. كان هذا الموقف تعبيرا واضحا من كلينا سيقرأه الآخر بنفس اللغة التي أحيل بها إليه...

ومرت أسابيع قبل أن أتماثل نهائيا للشفاء واستعيد صحتي وجزءا من حيويتي وجزءا أقل من سعادتي.. كان جميع أفراد الأسرة يعلمون أنني لا أمارس مع زينب أكثر من الدعابة والتنكيت، وكنت أعلم أن الأمر لا يمكن أن يستمر إلى اللانهاية، فلا بد من وضع لمسة نهائية على شكل العلاقة التي تربطنا وهو أمر حيرني كثيرا ولم أتمكن بعد من الاهتداء إلى أحسن الطرق السيئة لأسلكها بهذا الملف الشائك والحساس بالنسبة لي ولأفراد أسرتي.

وقررت الذهاب غدا صبيحة الخميس إلى "المجرية" ولما أعرف كيف أتصرف مع زينب.. واستعدت الأسرة لسفري فقاموا بشراء كميات كبيرة من الهدايا وأقاموا حفلة كبيرة على شرفي في المنزل تلك الليلة.. انتهت الحفلة مع منتصف الليل وآويت أنا وزينب إلى غرفتنا وجلسنا على السرير نتبادل النظرات المشبعة بالاستغراب، كلانا لا يعرف ماذا سيفعل ولا ماذا سيقول للآخر.. وكلانا يغص حلقه بكلام كثير عن كل شيء وعن لا شيء.. وكلانا يمتصه استكشاف المستقبل الذي لا يمن ببرق يكشف عن جزء ولو صغير يستدل به على بعض ملامح القادم من الأيام...

- سأفتقدك كثيرا..

قالت هذه العبارة بنفس ممتلئة بالمشاعر المختلطة، لا تريد أن تبشر نفسها بالمستحيل ولا تود أن تقنط من رحمة الله...

- وأنا كذلك سأفتقدكم جميعا.. وسأفتقدك أنت بالذات...

ولم يكن هذا الكلام كافيا، فلا بد من بريق أمل نفترق على ضوئه ويخفف من معاناتها.. فلا تبقى فريسة للمخدرات والجنون... ومع ذلك تبدو الحلول لئيمة في مثل هذه المواقف العاصفة بفيح الاحتمالات...
- نم بسرعة فستسافر غدا والوقت يمضي بسرعة..
وابتسمت ابتسامتها العذبة... ابتسامة لم أرها منذ زمن طويل ووضعت ظهرها إلى جنبي وأغمضت عينيها.. رغم حرقتها لا تريد أن تستعجل الأحداث... تريد أن تنضج الأمور في مراجل الواقعية.. لقد استسلمت للقناعة ورضيت بما هو مقدر... وأيقظتني في الصباح الباكر.. يبدو من ملامح وجهها أنها لم تنم البارحة ومع ذلك كانت تحاول أن تظهر رضاها وقبولها بالأمر الواقع، وكان عمي آخر من يودعنا وقد أشعلت محرك السيارة وانطلقت وأنا أراه في مرآة السيارة يحتضن ابنته ويعانقها..
كان منظر القرية وهي نائمة في الفجر منظرا حالما.. القرية تظهر شيئا فشيئا من تحت جلد الظلام.. واخترقت الأزقة بسرعة عادية كأنني أودع بيوتها بيتا بيتا.. ثم وصلت طريق "بوتلميت" فزدت السرعة وشغلت مكيف السيارة وأسطوانة الموسيقى الحبشية التي أحبها... بعد ربع ساعة من السير وبينما خففت السرعة عند الإشارة المنبهة للخطر تجاوزتني سيارة أعرفها جيدا بسرعة جنونية قبل أن تتوقف على رصيف الطريق وتلف داخل الأشجار القريبة وتتوقف.. توقفت خلفها فنزلت "هاوه" تنظر إلي بعيون رصاصية لم يخفف جمال هذه الشابة من صلابة الغضب على وجهها، واقتربت مني حتى أمسكت بيدي من نافذة السيارة ثم غطت وجهها بيدي وأجهشت في البكاء..
- أهكذا ترحل دون أن تودعني؟!
نزلت من السيارة لنتمشى قليلا ثم نجلس على العشب الأخضر..
- لقد جرى كل ما علمت به، وأرجو أن تعذريني مراعاة لظروفي الخاصة.. لن أنساك لأنك بكل صراحة خنجر عميق يخترق حشاياي..

لا تظني مثل هذا الظن.. لقد صارحتك وأعتقد أنك تعرفين كم أنا أحبك.. ولكنني أمر بظروف دقيقة.. حبذا لو زرتني بعد أسبوع أو اثنين في المجرية.
- حسنا سأفعل.. قم واصل طريقك بسلامة.

***

عندما اقتربت من مخيم المحطة شاهدت صفا طويلا من الناس يستعد لاستقبالي.. توقعت هذا، ولكن لم أتوقع أن تكذب "تاتو"، فها هم أفراد أسرتها يقفون في الصف إلى جانبها: عجوزان كبيران في السن وشابة في الثلاثين من عمرها، وكانت عيوني تبحث عن "رايت"؛ أطفأت محرك السيارة ونزلت لأصافح الجميع بحرارة، وهم يبدون حفاوة زائدة بقدومي.. ودخلنا الخيمة التي يعرف أنفي رائحة هواها جيدا ويميزها عن غيرها.. في هذه الخيمة عشت لحظات بالغة السعادة.. وخضت حوارات لذيذة وممتعة...
وجلس الجميع بإشارة مني وهم يتفرسون في وكأنهم يشاهدون كائنا خياليا.. كانت أخت "تاتو" تبتسم أكثر من اللازم و تتفرسني بنظراتها وأمها تتشدق بكل عبارات الترحاب بعفوية، أما الوالد فقد احتفظ بابتسامته العريضة وهو يكرر الترحاب وعبارات الامتنان لما أوليته من عناية لابنته "تاتو".. وكانت "تاتو" تظهر وكأنها ستطير من السعادة، وتصرخ في العمال: هاتوا كذا وكذا.. ثم جلست ملتصقة بجنبي وقالت: سأعرفك عليهم، ولا تصب بالدهشة، هذه والدتي "أنجل" وهذه أختي "ابياتريس"، وهذا والدي "رايت"... هذه أسرتي يا عزيزي.. لقد أردتها لك مفاجأة وادعيت

لك بأنهم سوف يسافرون قبل أن تأتي.. ولكنهم ظلوا بانتظارك حبا لك وتقديرا، وسيبقون معنا أسبوعا آخر حتى تتعارفوا أكثر..
وتصبب العرق من جبيني وأنا أنظر إلى "رايت" لقد تمكنت هذه الماكرة من خداعي طيلة هذا الوقت والتغني بعشيق لا وجود له، لتجعلني أجن، وأتعلق بها أكثر، وأحرم منها حتى ترحل مثل الغمام الجميل... وبعد تناول الطعام والشراب انزويت بـ"تاتو" في غرفتي بالخيمة وتعانقنا طويلا قبل أن نجلس ونمسح دموعنا العفوية:
- ابتدعت لك حكاية "رايت" منذ البداية، لأني لا أريد الدخول في العلاقات الغرامية، فجعلتها حاجزا يفصل عملي عن عواطفك.. وقد ضحكت كثيرا من تخطيطك لتلك الرسالة، وكم تعبت فيها لإثارة غيرة خطيب لا وجود له.. تظاهرت بذلك لأقول لك إن المرأة يمكن أن تخدع أذكى الرجال... صحيح أنني لست مرتبطة ولكنني لا أريد الارتباط بأي رجل، أو على الأصح لا أرغب في الارتباط بهم، وأشعر أن علاقتي برجل أحبه يجب أن لا تتعدى تبادل الحديث والدعابة.. أما الممارسات الجنسية فهي ليست من ذوقي..
- ولكنها ذوقي..
وضحكت "تاتو" قبل أن ترد بجدية:
- لن تكون لي علاقة جسدية بأي رجل في هذا العالم.. والآن تعال.. فهم يحبون الجلوس معك وما زالوا مشتاقين لك.
وعدنا للمجلس مع عائلة "تاتو"، حيث تحدث "رايت" بعربية مفككة:
- سوف أخبرك بخبر زميلتك "تاتو" ابنتنا، لأنني أعتبرك أصبحت فردا من العائلة.. لقد عثرت أسرة عربية كانت تسكن كندا خلال إحدى نزهاتها على طفلة لا يزيد عمرها عن ثلاثة أيام ملفوفة في قماش سميك وسط إحدى الغابات الثلجية فحملوها إلى المستشفى

حيث تلقت العلاجات الأولية ولم تعرف هويتها بالرغم من كل التحاليل والتحقيقات التي أجريت، ثم تبنتها تلك الأسرة لمدة سبعة شهور قبل أن يتم ترحيلها بتهمة الضلوع في المقاومة، وقد منحنا حق رعايتها وهي والله أعز علينا من بعضنا البعض ولا نكاد نتحمل فراقها وهي تعرف كم نحبها أكثر من أنفسنا.. لقد علمت أنك يتيم وأنك نابغة، ولكم تمنيت على "تاتو" أن تقبل الزواج منك، ولكن ابنتي مريضة نفسيا ولم تقبل يوما بأية علاقة مع أي رجل رغم المئات الذين تقدموا لها من كافة المستويات والأشكال وما بذلوه لجذبها.. وحبذا لو كنت ترغب في "ابياتريس" فهي تكاد تجن بحبك".

وتهلل وجه "ابياتريس" بالسعادة وقالت:

- ليتك.. ليتك..

وضحكنا جميعا وقد دخل "عياش" ليعزف لنا على آلة "التيدنيت" مع البدايات الأولى لخيوط الأصيل حين تخضب الأفق الغربي بالحناء الطبيعية الجذابة... وكشفت الآفاق من فوق قمة جبل "أشتف" عن مناظر مختلفة باختلاف الجهات وكأنها تعطي لكل ناظر من ذوقه ما يستحلي... وكانت السهرة طويلة هذه الليلة وبدأ كل منا يكتشف عالم الآخر ويغوص فيه بهدوء وحذر مثل السباح المبتدئ حتى سمعنا أذان السدس من مسجد المجرية فدخل آل "رايت" إلى خيمتهم التي أعدت لضيافتهم وبقيت أنا "وتاتو" في خيمتنا حيث أطلعتني على ما تحقق بعدي من تقدم في عمل المحطة، وعلى أن المركز تمكن من تسجيل ملايين الأشرطة المسترجعة من الفضاء عبر المجس..

وفي الصباح بعد تناول الفطور توجهنا إلى المحطة لتركيب بعض الأجهزة التي بعث بها المركز في كندا لتحسين الاستقبال، وطوال خمس ساعات استغرقها تركيب الأجهزة وتجربتها بالتشاور مع

المركز الذي كنا نخضع لتوجيهاته مباشرة بالبث المرئي. تأكدت أن "تاتو" لن تقبل بأي شكل من الأشكال الدخول معي في علاقة غرامية أيا كان شكلها، وأنها فعلا تحتسبني فردا من أسرتها ولكن لا أكثر.. وبحثت عن تبرير لهذا الموقف؛ فقد يكون وجودها لقيطة وشعورها بتخلي أسرتها الأصلية عنها قد ولد لديها عقدة خاصة من الرجال وخاصة من الزواج.. واكتشفت أن هذه المرأة ذات الجمال الباهر والذكاء المفرط والثقافة الواسعة أبرد جنسيا من الثلج الذي وجدت فيه.. وأدركت أن بصيص الأمل الذي كنت أعيش عليه - حتى في وجود العشيق الافتراضي "رايت" - قد خبا إلى الأبد... وظل سري يردد اللعنة على هذه المرأة ومفاجآتها.. لقد كدت للتو أنسى مأساتي مع زينب وعائلتي، وكدت ألقى بجمال "هاوه" في سلة المهملات. وها هي "تاتو" تعيدني للصفر وتدخل همومي بعد أن أشرفت على الخروج من لائحتها..

عذابات لا تنتهي كلها من النساء.. أو من هذه الشهوة المتقدة في جسمي وروحي.. أو كل هذا بسبب كوني عربيدا، متنوع الهوى، لا تليق به إلا الحانات وصالات القمار...

كانت زينب في البداية حلمي ونجمتي التي يتعلق ناظري بها كلما أشرقت في سمائي، ولما حصلت عليها أصبحت مجرد مكب لنفايات شهوتي، ثم جاءت طالبات الجامعة وكنت بينهن مثل الزير.. هن يعشقن ذاتي وسمعتي العلمية وأنا أعيش مثل الجرذ على محاسنهن وأجسادهن أدهن ذيلي من كل واحدة منهن وأبادلهن مثل الورق، أضع الخطط لإسقاطهن في شباكي وإلقاء عذريتهن وطهرهن وثقتهن بالرجال في خبر كان، وأزيد الغاويات منه غواية وصبابة.. ثم جاءت "تاتو" لتظهر لي كالشمس إذا ظهرت لم يبد منهن كوكب... لكنها حطمت كل ما كنت أحمله من أسلحة وأفقدتني الثقة في النفس والتألق الذي عشت فيه وأصبحت خادما تابعا يدعي

البراءة والمدنية من أجل أن يظل بجانب النار التي يحترق بلهيبها، ولما تأبت علي وكنت مغرما بها لحد الجنون، لم أستطع إلا أن أشبع رغبتي بتستر تام حتى في المواخير المفتوحة في المجرية ثم عدت لـ"زينب" وانغمست في الشهوات متناسيا كل القيم والأعراف التي يجب أن تحد شهوتي وغوايتي.. وظهرت في حياتي "هاوه" فجأة لتنسيني كل رغبة بزينب وتجعلني أشكر التاريخ على أنه منحني وساما أجمل من "تاتو"... وتقع الكارثة وأخرج من جراحها لأعود أصغر من أن أتحمل جمال "تاتو" وإشراقاتها في عالم الأنوثة الأسطورية... ثم أدخل في دوامة لا مخرج لي منها.. كل جهة تشدني بخيط يمر من نفسي لأصبح في وسط زوبعة الجهات تتجاذبني بحبال المرارة والإخفاق.

طوال أسبوع أظهرت كل الحب والتقدير والانسجام وكرم الضيافة لعائلة آل "رايت"، حتى ودعوني بالدموع والحنان البداييين وكان ذلك مؤثرا جدا في "تاتو"، ذلك التأثير الذي لم يعد يهمني كثيرا وهو ما لاحظته بسرعة فأصبحت تشعر بالخجل مني والإحراج، الأمر الذي دفعها ذات ليلة لأن تضع رأسها على فخذي بعد العشاء وتنظر إلي وهي تطرح السؤال:

- هل إن لم تكن لجسدي رغبة بالرجال... هل يؤثر ذلك على أخوتنا من ناحيتك؟..

قلت لها بكل برود ولا مبالاة:

- لا.. لقد أصبحنا إخوة منذ فترة ورفضتني مرات ولا أظنني عاملتك بغير الأخوة...

- أنت حزين جدا هذه الأيام ولا أحب أن أراك حزينا فذلك يشعرني بالذنب.

- لم؟.. لست مذنبة تجاهي.. أنت حرة في جسدك وعاطفتك وقد اقتنعت منذ زمن بأنك لست لي.. الدنيا قسمة ونصيب..

حاولت أن لا أبكي ولا أبدي التأثر وإن كان كل واحد منا يقرأ مشاعر الآخر بسهولة.. لا يمكنني التنكر لحب هذا الكائن الخرافي الجمال، الرائع الروح والعقل...
- هل أحببت حقا "هاوه"؟
- بصدق اشتهيتها، ولا يقل عقلها جمالا عن جسدها..
- و"زينب"؟
- جريمة اقترفتها.. ولا أحب تذكرها.. غيري مجرى الحديث...
- أنت غاضب مني؟..
- دعيك من هذا الموضوع...
- لا .. لن أتركه حتى ترضى...
جلست ومسحت دموعها..
- إذا كنت لا ترضى إلا إذا نلت مني فلا خيار لدي...
وغطت وجهها بكفي وهي تغالب البكاء حتى لا يرتفع صوتها..
- لا.. ما هكذا.. هل أنت مريضة.. تعرفين أنني لا أستغل الأشخاص ثم إن هذا الموضوع بالنسبة لي انتهي إلى الأبد..
كانت ليلة حزينة، فـ"تاتو" تشعر بأنها ظلمتني أكثر من اللازم وأنها استغلتني إلى أقصى حد بتلك الأماني المبطنة في تعاملها معي.. حركاتها وسكونها، ابتساماتها، وعناقها وحديثها الأنثوي الناعم... وها هي تخرجني من دائرة الأمل، فلا ريب أن إنسانيتها ستعذبها وتشعرها بمسؤوليتها عن الوضع الذي آليت إليه... وهي إنسانة حساسة جدا.. ولعلي آخر من تفكر في إيذائه.. وسيكون هذا موضع معاناة لا تطاق بالنسبة لها.
استقيظت على "عياش" وهو يحملق في طريقة نومنا بعد أن خاطبني مرات عديدة ولم استقيظ، فقد كان رأسي فوق ظهر "تاتو" التي نامت منبطحة، وكانت هذه أول مرة ننام فيها بشكل متقارب إلى هذا الحد.. وتذكرت كم بكت البارحة وتعذبت وهي تحاول بكل

جهد أن تعيد بوصلتي إلى الاتجاه الذي كانت دائما تشير إليه... وأشرت لـ"عياش" بإحضار فطورنا وأيقظتها فنهضت ودخلت الحمام ثم عادت وجلست إلى جانبي على مائدة الفطور والضحى يغسل الكون بنوره الأبدي الخالد...
- دخل علينا "عياش" في وضعية قد يظن معها بنا الظنون...
قالت وهي تمضغ الخبز وترتشف الشاي الساخن:
- كل العمال يقسمون لي بأنني أمارس معك... لقد أهنتني البارحة بغضبك وأبكيتني مثلما لم أبك في حياتي..
- أنت طفلة مدللة ترغبين في البكاء أحيانا فتبكين.. هل رأيتني غاضبا؟ هل قلت لك كلمة تجرح مشاعرك؟.. هل رفضت لك طلبا.. هل كشرت في وجهك؟.. تتدلعين وهذه صفة نسائية حميدة.. الغنج والدلع.. وعلى فكرة .. فقد عرفت من أين اكتسبت اللغة الفصيحة وسواد الشعر وبلاغة الدلال.. أنت عربية الأصل.. أظن ذلك...
- الجينات لا تكشف شيئا في هذا الخصوص، أو هم يتعمدون ذلك.. الفضل يعود للعرب الذين عثروا علي في الغابات، ولو لم يخرجوا إلى هناك لما كنت اليوم هنا..
- تصلحين كرمز لذلك الإنسان الغربي الذي وجده العرب في جاهلية بالغابات الأوروبية وعلموه ثم طردهم وجاء بعد ذلك لاحتلالهم..
- عدنا للصراع...
- الأفضل أن نخوض في الصراع الكبير، فصراعاتنا الصغيرة لا تنتهي بنا للخير والانسجام..
- ماذا يريدون الآن من تحطيم خزان المعلومات العالمية وهو لخدمة البشرية جمعاء؟!!..
- هذا السؤال يوجه للمقاومة.

- ما دمت تصر على مبدئية وحتمية الصراع فأجبني!..
- لست طرفا فيه..إن دوري يقتصر على دور المتفرج..
انتهينا من الفطور في الساعة الحادية عشرة، وتوجهنا للمحطة لإجراء بعض أعمال الصيانة ووضع الملاحظات ثم استقللنا السيارة لمسافة عشرة كيلومترات لنتغدى هناك وحدنا تحت ظل شجرة أرز كبيرة استجلبها رجل أعمال وزرعها هناك لتكون محل استراحته في نزهته بهذا الريف... كان الأكل شهيا و"من تغدى تمدى".. فنمنا حتى الغروب تحت تلك الشجرة العملاقة ثم توجهنا بسرعة إلى المخيم ووصلناه مع صلاة المغرب إذ نزلت من السيارة وأدركت الركعة الأخيرة مع "عياش" ثم أكملت صلاتي وسلمت ليهمس "عياش" في أذني:
- هناك في خيمتي ضيفة قادمة من "فاوه" تدعى "هاوه" وهي شابة قالت إنها قريبتك.
شتت هذا الخبر ما كنت فيه من خشوع وتأمل وتوجهت صحبته إلى خيمته حيث قفزت "هاوه" متعلقة بجيدي وهي تكرر:"أخي.. أخي.."... وجرى الدم الحار في عروقي وأنا أبحث عن حل لقضية "هاوه" فقد تساوى الفرح والفزع في قلبي، وأمرت "عياش" بإعداد واجب الضيافة فورا، واستأذنتها لدقائق توجهت خلالها إلى "تاتو" في الخيمة الكبيرة وما إن دخلت حتى حدجتني بنظرة عتاب وغضب:
- لماذا تأتي هذه المرأة لهذا المكان.. رجاء اذهب معها حتى تعود على مهلك فالمكان مخصص لعمل معين لا يقبل الغرباء... خذ مثلا أسبوعا معها هناك عند أهلها أو أي مكان تشاؤه.
- طيب، لتمض الليلة على خير وغدا أعرف كيف أصرفها.
نظرت إلى الأسفل مهمومة ولم تجبني، فعدت إلى خيمة "عياش"، وهناك مضت الأمور بهدوء ظاهريا، فقد تناولنا العشاء والشاي

والمشروبات وفي الحادية عشرة ليلا صرفت "عياش"، وجلست بجانب "هاوه":
- كان عليك أن تخبريني بقدومك.. تعرفين هؤلاء النصارى وحساسيتهم من الآخرين وحرصهم على سرية أعمالهم.
بدت في غاية الدلال والاسترخاء وهي ترد علي ببرودة أعصاب تحسد عليها:
- أردتها لك مفاجأة.. إذا كانت هذه اللعينة تغار عليك فلتمت غيظا وغيرة سأبقى هنا معك لمدة أسبوع..
ونظرت في وجهها وفخذيها نظرة امتصت الكثير من حيرتي، فهي كما تتمنى العين أن ترى والأذن أن تسمع.. ووضعت معطفها على السرير، واتكأت على ظهرها محدقة في سقف الخيمة.. إنها نظرة تطلقها على آخر ما تبقى بي من تردد... وعلت أنفاسها تصفر في الهواء مثل أزيز النحل..
- دعني أغرس هذا الوتد بيدي..
- ابق هكذا..
وانطلقت تتأوه بصوت مكتوم... تئن من اللذة ..
- هل تشعر أنني مثل الكلبة الآن وأنا أمسك ذيلك بهذه القوة؟... أنا كلبتك وشاتك التي تقفز عليها دون مقدمة..
في الثانية ليلا كان بإمكاني أن أقنع "هاوه" بالسفر صباحا على شرط أن ألحق بها بعد فترة وجيزة.. أخبرتني أن "زينب" تلتزم البيت ولا تخرج منه أبدا وأنها شفيت نهائيا من آثار المخدرات وأقبلت على التدين فهي تقرأ المصحف ليلا نهارا.. وبعد حديث طويل عن حياة القرية وأخبار سكانها غطت "هاوه" في نوم عميق، وبدأ النعاس يدب إلى عيني، وفجأة أحسست أن معي في المكان حضوراً ما.. بدأ يتشكل أمام عيني بطريقة بخارية .. كنت أرى جسمه واضحا؛ إنه هو، رجل في حدود الأربعين من العمر، متوسط الطول يميل لونه إلى

الاحمرار، تولت لحيته الستر المجاني لصدره، وكان يلف ما بين سرته إلى ركبتيه برداء قطني أبيض، يقف حافي القدمين وفي يده اليمنى عصا نحاسية خالية من أي زركشة، وفي يده اليسرى كتاب لا يحمل غلافه أي عنوان... خيل إلي أنه ألقى التحية رفع يده إلى السماء وقال: ((ساقتك الريح مثل القش إلى هضبة عالية من لا شعورك يرسم ظلها شكل المثلث السحري عند عبدة النار.. القوم لا يحملون من خصائص الكلمات غير أغلفة وبرية.. تتمزق في ثناياهم صافنة، عائمة كالإسفنج لا لقيمتها بل لخفتها.. على هذه الهضبة الجبلية كان سيد احمد يعمل في السخرة لأن من سخره لا يعدو كونه ظل لمن خدمه بدخان الكرامة.. لقد مات هنا تحت هذه الصخور التي حملها على ظهره يوما بعد يوم إلى أن فارقت روحه الحياة الدنيا.. لهذا الجبل حظ من الرجال وحظ من الغزاة.. تنام هنا على الصخور التي خضبت ظهر سيد احمد وهو يصعد لاهثا وقد أدمت قدميه الحافيتين الصخور والأشواك وهو يصعد وينزل الجبل نحو همومه..

***

خيل إلي أن الشمس أصبحت قبعة على رأسي لشدة ارتفاع الحرارة وتصبب العرق من جسم"تاتو" وهي تصعد السيارة قبلي.. نتجه الآن إلى جبل(.....) في رحلة وصفتها" تاتو" بأنها مهمة علمية خاصة، يجب أن تحاط بالسرية التامة، لذلك ستقتصر علينا نحن الاثنين فقط.. علمت بكل شيء عندما تأخر الليل، هكذا دأبها معي، لقد أصبحت أرفع قدمي قبل أن تحدد لي موضع الخطوة التالية.. وكان الأمر لا يضايقني كثيرا، إلا أنني شعرت مؤخرا بأنني شخص غير مؤتمن، خاصة بعد أن حصل مركز أبحاث آخر على بعض المعلومات عن نشاط محطة (أشتف)، وقد بحثت الأمر معها ولكنها نفت أن يكون الاتهام قد طاولني باعتبار أنهم يراقبون مراسلاتي الألكترونية ومكالماتي الهاتفية، وأضافت أنها هي نفسها تخضع للرقابة الشديدة وكذلك أسرتها، على اعتبار أن الإنسان يبقى دائما معرضا للخطأ والضعف البشري أمام المغريات التي تحف جهنم التنافس العلمي بين مختلف مراكز الأبحاث في العالم.

تراءى الجبل من بعيد كشبح من غمام داكن، فزدت السرعة وكأنني محب استعجلته رؤية المحبوب للقائه.

- أشعر بأن لديك علاقة خاصة مع الجبال، شيء ما يربطك بالجبال.. قد يكون ذلك من مآثر الطموح النائمة في اللاوعي عندك.. إن ملامحك

تتغير كلما رأيت الجبل، تدخل في حلقة من الفرح والحزن، وتظل سابحا فوق سرج التأمل..
تجاهلت حديثها، لشعوري بضيق مجهول المصدر، تمنيت لو أنني لم ألاق هذه المرأة في حياتي. لو حدث ذلك لكنت الآن أكثر ارتياحا وربما سعادة. ولكنت اليوم قد بدأت عملي المستقبلي بطمأنينة.. أشعر بالحنق والغضب لكوني أصبحت خادما لامرأة وأنها ملكتني بجسدها عن بعد. إن قراءتي لفلسفة الجسد، لا تفك عقد الحيرة، أيهما يملك الآخر؛ الجسد أم العقل؟ وهل يتصرف هذا الأخير بإملاء من الجسد؟!.. إننا اكتشفنا كثيرا من ماهية العقل، ولم نستطع كشف سر واحد من أسرار الجسد، حتى ملايين المعلومات المتوفرة عن الخلية الواحدة لا تزيدنا إلا ابتعادا عن معرفة حقيقتها الشاملة..
تمددت في المقعد بينما كانت" تاتو" تهيئ الفراش والطعام، كنت متعبا من القيادة في هذه الأرض الوعرة، تساءلت مرات لماذا لا تستخدم "تاتو" الطائرة في مهماتها.. لماذا السيارة بالذات؟ إن تفسيرا مقنعا لذلك غير متوفر عندي، وأحيانا عندها هي نفسها، فهي تؤمر فتطيع، وربما كانت لا تقشر البيض إلا بمخطط يرد إليها من المركز سلفا..
أرفع بصري إلى الجبل متأملا فوهة الجرف الكبير المقابل للشمس وهي تشارف على الغروب، لقد امتلأ بطني من الطعام والشراب وبدأت عضلات جسمي تصبح أثقل..
- متى تنتهي مهمتك في هذه البلاد؟ هل صحيح أنها بعد شهرين؟
- لقد كررت هذا السؤال.. وليس لدي غير جواب واحد.. نعم بعد شهرين فقط، سأسافر للإقامة نهائيا مع أسرتي.. وسوف تصبح حرا طليقا، مع أنني مستعدة لزيارتك كل شهر أينما كنت، لقد أصبحت جزءا من حياتي وفردا من عائلتي.. دعني أقل لك شيئا: إنني أشعر أن فيك تجميعاً لعائلتي، أحس فيك شيئا من شرف الأخ وشيئا من رابطة الأبوة، وشيئا من حنان أمي، والكثير من رغبة العشق... وطبعا وفاء

الصديق. من ناحيتي نلتقي بما فيه الكفاية في كل شيء إلا في الجسد.. سوف أكشف لك السبب، أنت على علم بأنني أرى بوضوح حجم جوعك الجسدي، جوع لا يظهر إلا تجاهي.. أنت تحبني أيضا مثلما لم يحب رجل امرأة من قبل، إني مليئة بالفخر كوني أثير اهتمامك، ولم أشعر بأنوثتي إلا يوم التقيك.. كانت قناعتي دائما بأنك الفاتح المغوار لجسدي.. ولكن ليس لدي تفسير لهذه العلة التي تمنعني من أن أعطيك جسدي.. إنها رغبتي المتكلسة كالإسمنت في كل خلية من جسمي، لكن هناك قوة خفية تمنعني من ذلك لا أعرف مصدرها وأظن أنهم استخدموا في المركز مادة تمنع جسمي من الاستسلام لأي رجل... لكم تمنيت وحشوت أحلام يقظتي بأنك تدلك جسدي برجولتك.. ولكم رجوت في داخلي أن تقوم باغتصابي وأن تأكل مناطقي الحساسة كالوحش الكاسر؟!... يا قلب" تاتو" أنا لا أجد تفسيرا لنفسي ولذلك أعتبر هذا البوح نوعا من العتب على النفس!!.. لو كان هنالك رجل في هذا العالم يستحق جسدي فيقيني أنه أنت. أنت وحدك. ولكن الأمر ليس بيدي وليته يوما يكون بيدي..

كانت تهذي بهذا الكلام والدموع تنهمر من عينيها.. وكانت لحظة المشهد مؤلمة حقا وتثير الجنون والفضول.. داخلني إحساس بالقنوط النهائي فلا أمل في الخروج من حياة هذه المرأة والأمل أبعد من الدخول فيها. الأمر الوحيد القابل للمعقولية هو أنها مبرمجة جينيا لحياة معينة أو لمهمة مدى الحياة... قبل زمن قليل رحلت "إكريك" وطبيبها وعند سلم الطائرة همس الدكتور "جورج" في أذني بأن المشكلة ستتعقد لأن "إكريك" حامل مني ولا يعرف كيف سيتصرف... وتابعت الطائرة وهي تصعد في السماء تحمل في جوفها جزءا مني، هل يبقى مصير ذلك الجزء مجهولا إلى الأبد؟ لقد شعرت في تلك اللحظات بحنان الأبوة لطفل سيولد فاقدا أحد الجدين!!

وعلمت بأنها ستضع مولودها بعد أسبوع. وأنها قد أصبحت أكثر رغبة في الحياة.. الطفل حسب الفحوص سيولد أسمر اللون، متوسط الطول، وسيكون أكثر ميلا للأدب وذا شخصية عدوانية جدا..
سيعلم عمي بالأمر ولن يفاتحني فيه، أعرف ذلك، وأعرف أن قوس أمله قد اخترق غياهب الخيبة، لقد قال لي ذلك بوضوح، وكان يبكي وهو يفتح لي صفحة البوح في علاقته بي.
ماذا لو اعتزلت الحياة وآويت إلى ركن من هذا الجبل أعبد الله وأبتعد عن ضجة البشرية وهمومها؟! إن الأمل قد يسقط غير محطم في مرات قليلة.. ومهما يكن فلا يمكنني أن أعيش موزعا بين "زينب" و"هاوه" و" تاتو" و" إكريك" و"طفلي" والمستقبل الذي شاءه عمي وأردته، إن هناك جملة واحدة ما يزال صداها يتردد في زجاجة نفسي، عندما قال عمي: "إنك قد تخيب أمل ابنتي "زينب" ولكن الخسارة الحقيقية هي أن تضيع أمل الأمة".
قد لا يتمكن المرء من رؤية الوضع فيصفه بالغموض، والواقع أن عيوننا هي المغمضة، ومن الأحسن أحيانا أن تبقى كذلك فلا نشعر بورطتنا ولا نرى العذاب من حولنا..
تقترح"تاتو" الاستماع لأغنية صينية قديمة كان يرددها العمال وهم يبنون سد الصين. لا داعي للتعليق على الاقتراح فقد فتحت الشريط. وبدأت الموسيقى الناعمة هادئة مثل مياه البركة..
وانتهت الأغنية ليطبق الصمت شفاهه الثقيلة، فلست راغبا في الحديث والمسامرة. ويبدو لي أن زمن الإشراقات النفسية (..) قد ولى.. وعلي الآن أن أستجمع شجاعتي حتى ترحل"تاتو" فأصنع من شظايا هزيمتي قاربا للنجاة يوصلني لأي شاطئ..
- المهمة هي العثور على حجر آخر يقع داخل كهف هذا الجبل.
- توقعت الأمر..
- من الأجهزة التي حملنا؟

- لا.. بل من فلسفة حبكم لأحجارنا دون ذواتنا.
- الصراع الشريف أفضل طريق لبقاء البشرية واستمرار سيادتها... هذا إذا كنت لا تزال تحب خلقا افتراضيا لصراع لا وجود له إلا في ذهن من يتمنونه أو يسعون إليه...
- من أين استمطرتم هذا الشرف؟.. لقد استعبدتم الناس وقبل أن تلدهم أمهاتهم.
- عدت إلى الاستنجاد باللغة الشاعرية.
- أفضل النوم.. النوم أفضل من الشعر، وربما من الحديث مع فتاة تمارس اللعب بالألوان..
تشرق الشمس من جديد مثل الجوهرة الماسية المعلقة في جيد غادة ناعمة، وبعد الفطور سنشرع في تشغيل الأجهزة لتحديد موقع الحجر ومن ثم استخراجه..
كان الكهف معتما، مما استدعانا لاستخدام مصباح يدوي والسير بحذر متأملين فتنة الطبيعة الجرداء في هذا التجويف الصخري الجميل، حيث تنكشف شاعرية ورهبة الطبيعة الخلابة وكأنها مغمسة بهالة من السحر والطلاسم.. الأجداد كانوا هنا يدخلون ليأكلوا صيدهم في الدفء أو في الظل، وكانوا يختبئون هنا عن أعدائهم ومنافسيهم.. ويستمتعون بالعزلة المشرقة من قلب هذا الجبل. وصلنا إلى ممر ضيق جدا في الكهف يكاد لا يكون كافيا لمرور شخص، وازدادت العتمة، وتتبين الحياة السرية أكثر في الداخل فهناك بيض الحمام والسحالي، وبعض الخفافيش التي تستعذب شهد الظلام.
بعد مسيرة عشرة أمتار تقريبا داخل الكهف بينت الأجهزة موقع الحجر على بعد نصف متر تحت أرضية الكهف الصخرية، وكان علينا استخدام أدوات الحفر بحذر شديد حتى لا يصاب الحجر بأي خدوش وهي مهمة صعبة. وبدأت أحفر بهدوء و"تاتو" تتولى مهمة تركيز المصباح.

- لقد أصبح على بعد ثلاثة سانتيمترات.. إحذر.. إحذر.
- وماذا لو أصابه مكروه؟..
- لا.. سيكون الأمر خطيرا.. تمهل.. إن الكهف من حولنا قد تصدع، هل رأيت انظر هناك.
وسلطت ضوء المصباح على صدع عميق في الكهف..
- لعله قديم.
- لا.. لقد تفحصت المكان قبل الحفر، إنه صدع من تأثير الحفر الذي تقوم به، ما تفسيرك لذلك؟
- كالعادة، لا تفسر أحلام اليقظة.. ركزي الضوء هنا لنواصل.
بعد ساعتين تمكنا من استخراج الحجر، إنه من نفس نوعية الحجر الذي استخرجناه سابقا.. يبدو التطابق مثيرا للاستغراب بالنسبة لي، على عكس"تاتو" التي لفته في قطعة قماش وهي تبتسم بسعادة غامرة.
وجلست أمسح عن جبيني العرق وقد أتعبني الحذر الزائد أثناء الحفر.
فتحت"تاتو" حافظة الشراب وناولتني قنينة عصير، خيل إلي أنني أصبت بدوار خفيف، لكن الأرض اهتزت وبدأت الرمال المحملة بالأتربة تتسرب من الصدع الذي لاحظنا حدوثه أثناء الحفر.
ارتجفت"تاتو" وأخذت بيدها الحجر مضطربة.
- لنخرج.. لنخرج..انهيار.
التقطت المصباح بسرعة وهرولت على أثر"تاتو" التي انقلبت فجأة عائدة إلى الوراء حتى اصطدمت بي وهي تصرخ.
- يا إلهي لقد انهارت الصخور وسدت المضيق.. إنها النهاية.. النهاية.. يا إلهي..
وارتفع صوتها بالبكاء والصراخ.. ركزت الضوء ليتبين لي أن المضيق قد سد تماما بصخور كبيرة يبدو أنها سقطت من سقف الكهف.
وبدأت في محاولة تهدئة "تاتو".
- حسنا آنستي سنتصل بالهاتف النقال وسيأتون لإنقاذنا..

لم يكن هذا الكلام مجديا، فقد سقط الهاتف من يد"تاتو" وهي تولي هاربة أثناء الانهيار ولا شك أنه تحطم تحت هذه الصخور التي لا يقل وزن إحداها عن مائتي كيلوغرام.. وشعرت حقا بخطورة الموقف وأنا أحاول أن تهدأ عاصفة الرعب التي تجتاحها..

- طيب سأقول لك شيئا.. إن الدموع لا تؤثر في هذه الصخور وهي لا تقبلها كشفيع..

- ماذا سنفعل؟

ومسحت دموعها.. وجلست..

- اسمعي جيدا.. أولا علينا ترشيد ما لدينا من شراب ومن إنارة.. وثانيا علينا التفكير في مخرج بأعصاب باردة.

- كيف؟.. كيف؟.. نحن سنموت!!..

- إن الموت أمر حتمي... لكن علينا أن نموت بكرامة.. يعني علينا أن نقاوم.. لنطفئ الضوء ونفكر بهدوء..

- لا .. أرجوك دع الضوء..

- ستنفد البطاريات..

- طيب.. دعه للحظات.

- إن عقل الإنسان في موقف الرعب أشبه بالقش في وسط العاصفة؛ من السهل عليه أن يطير..

- ماذا سنفعل؟

- لا أعرف لكنني لن أستسلم، سأزيح هذه الصخور، فقط ساعديني بالإرادة..

أطفأنا المصباح ليحفنا الظلام الدامس وسط سكون رهيب وبعد لحظات من الصمت بدأنا في مناقشة شبه يائسة للخروج من هذا المأزق، وهو احتمال شبه مستحيل في ظل إمكانياتنا.

- لقد مرت ساعتان.. الساعة الآن الثالثة ظهرا.. لا أمل.

- إذن حان وقت صلاتي.. نحن قوم يصلون ولو كانوا في قبور مظلمة مثل هذه.
بعد فراغي من صلاة الظهر قلت لها:
- إن المضيق لا يتجاوز طوله ثلاثة مترات، وسأحاول إزاحة صخر بعد آخر.. تستعملين المصباح حتى أمسك الحجر من الزاوية المناسبة وبعدها تطفئين الضوء ترشيدا للطاقة وعندما أحتاجه سأطلب ذلك منك.
بدأت في زحزحة الحجر الأول بصعوبة بالغة وبعد نصف ساعة تمكنت من سحبه إلى داخل الكهف، وجلست وقد خارت قواي، وشعرت بالعطش الشديد.. لم يكن في حفاظة الشراب أكثر من تسع قناني يبلغ مجموع ما فيها حوالي ثلاثة ليترات من العصير والماء.
ازدادت مخاوفي من احتمال نفاد كمية الأكسيجين وتعرضنا للاختناق، وبلغت الساعة السادسة من مساء نفس اليوم المظلم لننتقل من ظلام إلى ظلام وتزداد حالتنا النفسية سوءا، فقد انهارت معنويات "تاتو" نهائيا ونحن نشرب رشفة رشفة، ويكاد الجوع يهلك ما تبقى لدينا من إرادة.. وجلست لأستريح قبل أن أعاود الكرة.. قلت "لتاتو": إن سيزيف ربما كان محظوظا لأنه كان يحمل الصخور في ضوء النهار.. وكادت أن تنتزع ضحكة من مخالب اليأس الذي يغالبها، ثم عدت لمصارعة الأحجار من جديد حتى قبيل صلاة المغرب، حيث أديتها وأنا أشعر بمفاصلي تتجاذبني بالألم، وتمددت على ظهري بقرب "تاتو".. في وضع كهذا تعرف معنى تلك اللغة العظيمة التي يتمتع بها العميان، فقد بدأت مفردات هذه اللغة تدخل إحساسي، وكنت من قبل لا أتعاطاها إلا من باب الترف، وفجأة شعرت بأن النار اشتعلت في قدمي فقزت صارخا وأرجاء الكهف تردد صرختي فيما يشبه السخرية..
- مالك.. مالك؟...
- قدمي !!.. لسعتني أفعى..

وأشعلت "تاتو" المصباح وانقضت على الأفعى التي كانت ترفع رأسها وهشمتها بالأحجار، ثم بادرت بشق قطعة من قميصها وربطت بها ساقي فوق الجرح الذي بدأ يدمع بالدم ثم أخذت تمص الفتحتين الصغيرتين اللتين أحدثتهما أنياب الأفعى في ظهر كعبي ثم تبصق، وبدأت أشعر بالخدر يسري في جسدي بعد أن خفت الآلام ثم دخلت في غيبوبة...

كان العشب شديد الاخضرار حول تلك البحيرة ذات المياه الزرقاء الصافية.. كانت البحيرة تبدو هادئة تماما.. خرجت من وسطها "إكريك" وهي تلبس ملحفة بيضاء مثلما يخرج البرق من الغيمة، وتقدمت مني حتى جلست على ركبتيها أمامي وهي تبتسم، لم تكن ملابسها مبللة.. شيء غريب.. قالت: ((هنا ستلاقيني دائما، سأخرج إليك كلما جئت، وسوف تمتع نفسك مني.. لا تخف إن خرجت إليك.. ولا تظنني شبحا.. سأخرج بكامل كياني وستجدني أكثر لذة وأشهى مضجعا وأكثر حبا وحنانا، فتعامل معي كما كنت تفعل، سأظل كما كنت تجدني وكما كنت تعرفني.. لن نفترق أبدا وحتى إن لم تأت فسأظل معك أرعاك وأنعم برؤيتك...)).. ثم ألقت في حجري بصرة خضراء من القماش وجدت بداخلها خاتماً منقوشاً بشتى أنواع الأحجار الكريمة، وانصرفت تمشي فوق سطح البحيرة حتى بلغت منتصفها واختفت من حيث ظهرت... وأحسست بأنفاس وجه منكب على صدري فرفعت يدي ولمست وجه "تاتو" التي رفعت رأسها وأطلقت ضوء المصباح باتجاه وجهي ومررت يدها على جانب صدري الأيسر..

- الحمد لله.. استيقظت.. إنها الساعة الخامسة فجرا.

قالت هذه الكلمات، وقربت إلي قنينة الماء فرشفت منها، وأعدت رأسي إلى فخذها، كنت مبللا بالعرق، وكان الورم قد بلغ ركبتي...

- كنت أدعو الله أن لا تموت قبلي..

وجلست بمساعدتها وتناولت المصباح الذي بدا ضوءه أقل سطوعا، وسلطت الضوء على مختلف زوايا الكهف ثم أطفأت المصباح بعد أن لاحظنا أن السحالي والخفافيش قد ماتت جميعا..

- ما هو تفسيرك لموتها، ألا يعني موت السكان الطبيعيين لهذه البيئة أننا لن نكون أكثر قدرة منها على البقاء هنا؟...

- إذن يمكنني الاطمئنان إلى أن أفعى أخرى لن تصيبني...

غمغمت "تاتو" فيما يشبه البكاء ثم احتضنتني بقوة أحسست معها بجدية ما ستقوله:

- اسمع عزيزي.. الظروف علينا، لا لنا.. كل الظروف تنبئ بمصيرنا.. الآن أتقبل هذا المصير بروح راضية.. ولكن لي طلبا أرجو أن تنفذه لي.. إنني أطلب منك أن تتزوجني الآن.. وإن كان لا بد فتزوجني وفق مراسيم دينك.. المهم أن نتزوج.. أريد أن أنتقل إلى العالم الآخر ونحن زوجان... لطالما حلمت بأن تتزوجني وكنت أخبئ هذا الأمر ليكون لك مفاجأة بعد انتهاء مهمتي... لكن الأقدار تجري كما ترى... رجاء تزوجني.. وبعدها فليكن ما يكون؟...

وأجهشت في البكاء..

- رجاء اسكتي، فإن دموعك أثقل علي من هذا السم الذي يجري في دمي..

- نفذ ما طلبته منك.. أريد أن نموت زوجين..

- ستكونين أول عروس تزف في كهف مظلم... دعيك من استحضار الإرث السينمائي.

بعد تقديري للوقت سنكون في الليلة الثانية في هذا النفق لقد نفد كل شيء.. المصباح.. والشراب.. وأصبح العطش يكاد يمنعنا من الكلام... كانت "تاتو" منذ عدة ساعات متكئة لا تتحرك ولا تجيب إلا بعبارات مقتضبة تنبئ عن ضعفها.. قدرت الجهة التي تقع فيها الصخور التي سدت علينا النفق اعتمادا على أن المصباح نفد وهي تضع رأسها

باتجاهها، تحاملت على نفسي وبدأت خطواتي باتجاه تلك الصخور حتى وصلتها وأخذت في محاولة زحزحة أول صخرة لمستها، كنت أجذبها فأسقط وأتأذى من ذلك السقوط، وامتلأ جسدي بالرضوض والجراح الخفيفة لكنني بعد ساعات تمكنت من حمل صخرتين كبيرتين ووضعتهما جانبا ثم عدت لـ"تاتو" مستدلا بصوتها وجلست وأنا أخاف من أن لا أتمكن من العودة مرة أخرى، لأنني شعرت بإرهاق شديد وكأن كل شيء في بدأ يذبل.. وما هي إلا دقائق حتى ازداد جسمي ثقلا وبدأت آلام الجراح والرضوض تزداد حدة حتى لكأن جسدي يضم مجمرة تحرق كل خلية على حدة... وتحاملت مرة أخرى واتجهت إلى الصخور.

- ألم تفقد الأمل؟..

جاءني صوتها ضعيفا ليحدث في نفسي شرخا آخر.. تذكرت ذلك اليوم الذي رأيتها فيه تستحم في الأضاة حيث خرجت لتستلقى على العشب عارية تحت أشعة الشمس الساطعة.. كان مشهد حجرها رهيبا فهو مثل الفتحة التي أحدثها السيل في منحدر ربوة معشبة.. لكم غضبت في ذلك اليوم وكانت قاسية في لومها لي، متصورة أنني دبرت الأمر، وكان "عياش" يقهقه بشدة ساخرا منها وهو يملأ أنفه من الشم بحيث أصبح منخراه يشبهان حفرة قديمة للشواء... كنت أستند على جانب الكهف لأن قدمي المصابة لا تقوى على الوقوف، ووضعت يدي حول الحجر وتلمسته مكتشفا قسوته في هذه اللحظة أكثر من سابقيه، حاولت رفعه فلم أتمكن، ولجأت لزحزحته شيئا فشيئا، وبعد وقت تعد ثوانيه بالسنين بلغت به الشفير الذي أسقطت منه سابقيه... التقطت أنفاسي واستجمعت ما بي من قوة وجذبته فلم يتحرك، بل شعرت كأن خنجرا دخل كتفي، لعله تمزق حدث في نسيج كتفي.. فانحنيت عليه لأستريح حتى خف ألم كتفي، ثم قبضت عليه بشدة وجذبته بقوة فسقط إلى الأسفل لكنه جذبني معه وكدت أن أصرخ وقد فقدت الإحساس بيدي التي سمعت أصابعها

تتكسر تحت الحجر، وبثورة غضب رفعت جانبه بيدي اليسرى حتى تمكنت من سحب جناحي.. ثم تلمسته فبلغت أصابعي المهشمة ولمست الدم ينزف منها.. كاد الفرح يداخلني لحظة بأن يدي لم تقطع.. وكانت "تاتو" تكاد تجن وهي ترتجف وتحزم يدي بشدة بقطعة قماش من قميصها، كان ملمسها يشعرني بأنها ستؤنبني، لكنها أجهشت بالبكاء بعد أن وضعت يدي المصابة على فخذي.

- قلت لك سنموت.. سنموت !!..

وارتفع صوتها بالبكاء ثم خفت فجأة كأن شيئا لم يكن.. مددت يدي فلمست ظهرها.. فاستدرت لأسند ظهري عليها في الوقت الذي بدأت فيه يدي المهشمة وذراعي بالانتفاخ، وأخذت أشعر بآلام لا تطاق ووهن شديد، حاولت التأوه ولكن حلقي كان يابسا تماما وجافا مثل هذه الصخور التي ألمسها.. أخذت حجرا صغيرا بحجم الكف ورفعت يدي به، ضغطت عليه بشدة وفي لحظة من لا شعوري صرخت وألقيته باتجاه مكان الصخور التي تسد النفق وما كاد يرتطم بها حتى سمعت صوت انهيار كبير وانفتح النفق عن ضوء خافت تكاد تحجبه الأتربة والغبار، تأملت الصورة في خارج الكهف كأن أحدا وضع مرآة هناك، وأغمضت عيني فيما كانت "تاتو" تصرخ بصوت عال:

- لنخرج.. لنخرج بسرعة..

وأمسكت بيدي وبدأت تجذبني وأنا أركض على رجل واحدة، وما كدنا نتجاوز مكان الانهيار السابق ونخرج من باب الكهف حتى سمعنا صوتا يشبه الرعود ثم رأينا كيف انهار باب الكهف واختفى مدخله تماما..ضاعفنا من سرعتنا باتجاه السيارة.

- اللعنة لقد بقيت مفاتيح السيارة في الداخل..

كان ذلك آخر ما سمعته منها قبل أن يغمى علي..

***

بعد أسبوع وضعوني على السرير داخل الخيمة، كنت لا أزال أشعر بالألم وأتذكر منظر الأسرة داخل المستشفى الذي كنت أرقد فيه.. جلست "تاتو" بالقرب مني وبكت كثيرا قبل أن ترفع وجهها وترسل ابتسامتها من بين الدموع التي تسيل على خديها مثلما يعكس وسط النهر أشعة الشمس قالت:
- لا أصدق حتى الآن أننا نجونا.. سأشرف اليوم بنفسي على إعداد الطعام..
مددت يدي وفتحت الكامبيوتر وبدأت في تصفح الرسائل الواردة..
" أهلا.. هذا أنا "جورج"... اتصلت بك أكثر من مرة وقد أخبروني أنك مسافر.. يحزنني أن أخبرك بأن "إكريك" قد انتحرت بعد أن وضعت طفلا جميلا أوصت بأن يسمى عليك وأن يكون لك حق رعايته.. لقد غافلت الأطباء وقفزت من نافذة غرفة الولادة في الطابق العاشر بعد ساعتين فقط من وضعها لولدها.. كانت نهاية محزنة.. وقد وجد الأطباء تحت سريرها رسالة مغلقة وعليها عنوانك ستصلك قريبا.. إنها خسارة وأعرف كم ستتألم.. تحياتي..".."
- هذه الرسالة وصلت للتو.. إنها من "إكريك".
وانصرف "عياش" بعد أن وضع الرسالة بيدي... ففتحتها بالاستعانة بأسناني وأخذت أقرأ : ((البحيرة التي شاهدت في حلمك تلك الليلة موجودة في إحدى الغابات الكندية ويمكنك أن تستدل عليها من الصور

المنشورة في المواقع السياحية.. هناك ستلاقيني دائما، سأخرج إليك كلما جئت وسوف تمتع نفسك مني.. لا تخف إن خرجت إليك.. ولا تظنني شبحا.. سأخرج بكامل كياني وستجدني أكثر لذة وأشهى مضجعا وأكثر حبا وحنانا، فتعامل معي كما كنت تفعل، سأظل كما كنت تجدني وكما كنت تعرفني.. لن نفترق أبدا، وحتى إن لم تأت، فسأظل معك أرعاك وأنعم برؤيتك.. طفلنا أمانة بين يديك، قل له إن أمه تحبه كثيرا وأخبره عن مدى حبي لك واصحبه دائما عندما تأتي للبحيرة، قد تتركه في السيارة حتى تنتهي من لقائي.. علمه الرسم وقل له إنني أرغب أن يرسمني بالألوان الطبيعية على جذع شجرة.. إنني أحب ذلك.. ولا أرغب مطلقا في الرسوم التي تنفذ على قطع القماش أو الورق.. علمه ركوب الخيل واجعله من محبي الأدب والفلسفة.. أحبك فلا تغضب مني لأني تصرفت على ذلك النحو.. لقد فرضوا علي أن أحيا كما يشاؤون وأن أكون دمية تعويضية لنزوة رجل حاقد.. لكنني فضلت أن أسلك الطريق الأقرب لأملك إرادتي ولأبقى لك وحدك... أحبك..)).

تركت الرسالة تسقط في حضني، وحدقت إلى الأفق متأملا مرور أسراب المزن البيضاء.. حيث كان ظلها يمر على الأرض.. وكأني أراه لأول مرة، دققت النظر في الهوائي الشاخص إلى الأفق في سكون مثل عين الميت... دخلت "تاتو" تتقدم "عياش" الذي يحمل صينية الطعام وجلست قبالتي .. حدقت فيَّ للحظات قبل أن تبدأ بتقطيع شرائح اللحم التي لا يزال بها من فعل الشي صوت يشبه طنين النحل..